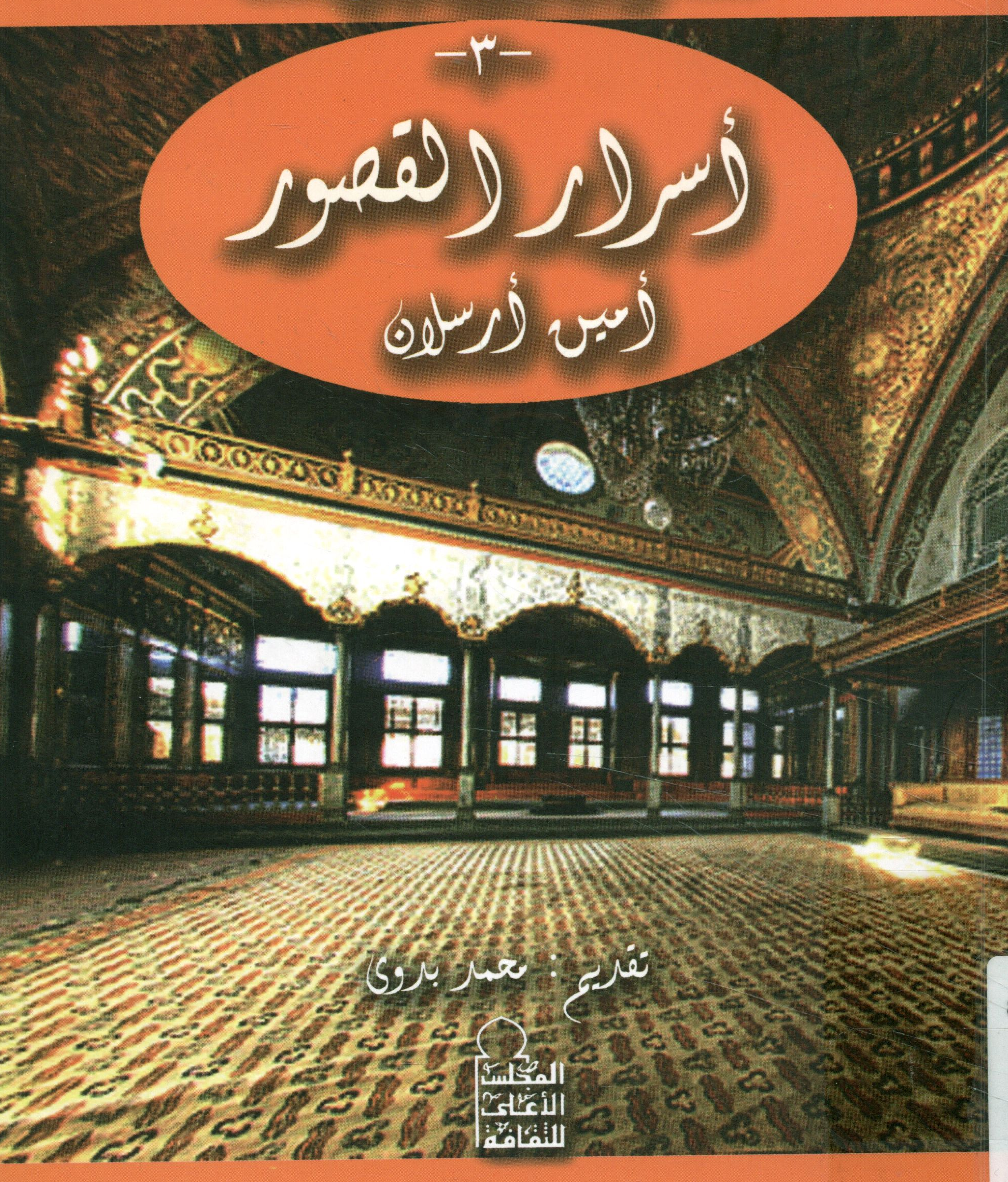
*** تراث الرواية العربية ***

-٣-

أسرار القصور

أمين أرسلان



تقديم: محمد بدوي

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

** تراث الرواية العربية **

(٣)

أسرار القصور

سياسيّة تاريخيّة غراميّة أدبيّة

تأليف : أمين أرسلان

تقديم : محمد بدوي

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أرسلان ،أمين
أسرار القصور : رواية سياسية تاريخية غرامية أدبية / تأليف
أمين أرسلان ، تقديم : محمد بدوى
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ط ٥ ، ٢٠٠٩
١٤٠ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص العربية
(أ) العنوان
٨١٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٣٢٩٦
الترقيم الدولى 9 - 772 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084

المحتويات

تقـــديم

منذ العنوان – أسرار القصـور – تعلن هـذه الرواية عن نفسـها ؛ فهـى تضـع فى قران واحد علامـتين تفيضـان بالمعنى ، «الأسرار والقصـور» لكى تؤشر إلى أفق محـدد للتأويل ، كأن الكاتب يغرى متلقيه ويلوّح له بوعـود غامضـة عن أشياء مستورة ومحجوبة فى تلك الفضاءات المغلقـة فى وجه العامة ممن لا يسكنون القصور ولا حتى يحلمون بوطء أديمها ، لكنهم مأخوذون بها ، مشدودن إلى ما تكنه من أسرار . القصور مثوى ملوك "الشرق" حيث البذخ والنعيم والجواهر والجوارى الشركسيات الفاتنات . أىّ فضاء يمكن أن يحمل إغواء للقارئ ، ويغريه ، أكثر من «التلصص» عليها ، والتحديق فيما يجرى فيها من الكائنات «الأخرى» ، وهـى تمارس أبهة الحكم ومباهجه ، وهى تدبر مؤامراتها ، وتتلقاها ؟!

العلامة الأولى كلمة الأسرار تتواتر فى السرد الشعبى غير الرسمى بعد أن قيدت حريته فى عصر الطباعة . نراها مبثوثة فى كثير من نصوصه ؛ فالسر ما يكتم فى النفس ولا يباح به إلا لمن نثق بهم من الخلصاء . عالم «السريرة» يضن به صاحبه على من هم خارجه ، خارج حياته أو عقائده ، ومن هنا اشتغال العلامة فى عالم الفرق الدينية المغلقة ، واشتغالها فى عالم السرد والتاريخ .

وفى هـذه الرواية التى تعرّف نفسـها بوصـفها : رواية سياسية غرامية أدبية تتدعم علامة الأسرار ، من ناحية تؤشر على وعد للمتلقى بإدخاله إلى سحر الخيال من منطقة تتصل بالغرام ، أى بالذات وأسرارها ، وتتصل بالسياسة ومؤامراتها ، ومن ثم تأخذه بعيداً عن «الواقع» الثقيل الوطأة ، إلى «واقع» آخر ، مادى وصلب ، لكنه واقع فاتن مثير . قد نجد أنفسنا فى بعض الفصول فى فضاء الشظف الخشن ، لكن هذا

لا يعدو أن يكون الوسيلة للدخول إلى فضاء القصور ، من ناحية ثانية تقول لنا العلامة إنّ صاحبها يقف فى المنتصف بين عالم القارئ وعالم «الحُكّام» . إنه الوسيط التقليدى بين الناس ، العامة ، الشعب وبين «القصر» ، سواء كنا فى مجال السياسة أو السرد .

نحن فى عام ١٨٩٧ م ، عام طبع الرواية للمرة الأولى ؛ أى بعد أن قطع "الشرق" خطوات فى الدخول إلى فضاء الطباعة . مضى الزمن الذى كان الورّاقون فيه ينسخون فقط الكتب الجهمة العابسة التى لا يقرأها سوى «الخاصة» ، وفى حلقات التلقى الجماعى فى دور العبادة والدرس . وأتى زمن آخر أصبح الكتاب المطبوع والصحيفة ، وكلاهما كتاب ، بمعنى ما ، أصبحا أداة اتصال سهلة يقدر الجميع على استخدامها . بإمكان محب الحكايات من "الأفندية" وربات البيوت نصف المتعلمات ، أن يأخذوا كتبهم التى يحبون قراءتها إلى خلوة ، حيث يمكنه أن يقرأ وحده ، دون سلطة "الجماعة" ، ويحوِّل الكلمات إلى معانٍ تتصل بذاته وبمكبوته ورغباته . فقد «كثر فى الشرق الميل إلى مطالعة الروايات الأدبية ، وكثر المشتغلون فى كتابتها بين معرِّب ومصنِّف» [1] ، كما يقول أمين أرسلان مؤلف الرواية و "قنصل جنرال الدولة العليّة العثمانية فى الأرخنتين" . هذا الميل إلى مطالعة الروايات أنتج توترًا لدى المثقف التقليدى . أشعره أن ثمة «مواقع» تحتل من قبل آخرين ، وتستخدم لصالح ثقافة أخرى واردة ؛ فالقارئ يتلقى هذه القصص فى «خلوة» لتسهم فى تكوين ذات أخرى مختلفة ، لتحرره من حراسة المثقف التقليدى للمعنى . وقد قام كثيرون من هؤلاء المثقفين بنقد هذا الميل إلى مطالعة القصص ، وقام آخرون – كأمين أرسلان – باستثمار هذا الميل للبث الأخلاقى الإصلاحى [2] .

أمين أرسلان «قنصل الدولة العليّة العثمانية فى الأرخنتين» ، ومؤلف الرواية رجل دولة ، متمكن من معرفة الأسرار «وقد دعوتها» – يقصد الرواية – «أسرار القصور» ، لأنها حوت كثيراً من الأسرار غير المعلومة إلا لأفراد قلائل» .

ولأنه ليس مجرد مشتغلٍ «فى كتابة الروايات» ؛ فهو يميِّز روايته عن غيرها . الكتبة الآخرون اختاروا "النوع الغرامى المحض الذى لا شىء فيه سوى الفكاهة" ، أما هو

فاختار كتابة الرواية التاريخية التى تدور أحداثها فى التاريخ القريب ، بل المعاصر ، ومن ثم فهى «تمتاز عما سواها بما تجمعه من لذة الفكاهة وفائدة التاريخ» [٣] . وقد «اشتملت» رواية «أسرار القصور» – كما يقول مؤلفها – «على ملخص تاريخ السلاطين العثمانيين الثلاثة ... وهم عبد المجيد وعبد العزيز ومراد» ، وفيها «أنباء كثيرة عن أميالهم الشخصية ومذاهبهم السياسية ، ولُمَعًا كافية عن كبار رجال السلطنة فى عهدهم» [٤] . لكن من أىّ منظور سرد أمين أرسلان تاريخ هؤلاء السلاطين ؟ تنبئ قراءة الرواية عن هذا المنظور من دون لبس ، وهو منظور جمعية «تركيا الفتاة» التى مثلت تعبيراً سياسياً عن «الإصلاحيين الأتراك» ، ومن هنا نفهم سبب قيام السلطان عبد الحميد بـ «جمع نسخ الرواية وحرقها» ، وهو سلوك يؤكد ما دعاه المؤلف «الدور الحميدى المشئوم» ؛ فالسلطان – كأىّ مستبد شرقى – لا يطيق أىّ نقد يوجه إليه ، ويصيبه الهلع «لدى أقل تلميح إلى الحرية والإصلاح» ، كما يقول المؤلف فى مقدمة الطبعة الرابعة للرواية ، التى كتبها وهو «مقصىٌ عن بلاده» فى «إحدى زوايا عاصمة الفرنسيس» [٥] . وهكذا كأن الكاتب يتحدث إلينا عن زمننا لا زمنه ، كأننا أبناء تاريخ واحد تتشابه لحظاته وآناته ، فيقوم الروائى بتحويل السرد إلى آلة للخطابة السياسية ، فيقوم "ولى الأمر" بإحراق نسخ الكتاب ، ويقصى كاتبه عن بلاده .

على أىّ حال يأخذ «التاريخ» وضعًا متميزًا فى الثقافة الإسلامية ، فرغم أنّه علم غير شرعى ، لا يحلل حلالاً ولا يحرم حرامًا ، فإنه علم «شريف» ، و «فيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله» ، كما يقول الجبرتى الذى ينسب تأسيسه إلى الخليفة الثانى عمر بن الخطّاب [٦] . ولذلك فهو سرد أخلاقى يختلف عن سرود أخرى رفضها الموجهون الأخلاقيون من الأدباء والفقهاء والمحدّثين . فى العصر الحديث ، وفى بواكير تأسيس فن «الرواية» قام الأدباء وساردو الحكايات باستخدام التاريخ كوسيلة للبثّ الأخلاقى ، خالطين ما فيه من متعة بالعبرة والعزّة . «إن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته والاستزادة منه ، كما يقول چورچى زيدان الذى سعى إلى أن يكون التاريخ حاكمًا على الرواية ، وليس العكس كما يفعل كتبة الإفرنج الذين يجعلون التاريخ خادمًا للفن ،

ولذلك «اهتموا بالجانب الخيالى أكثر من اهتمامهم بالجانب التاريخى» . وهذا ما فعله أمين أرسلان الذى صاغ قصة غرامية ليتمكن من سرد الصراع السياسى بين دعاة الإصلاح وأنصار المحافظة فى الدولة العثمانية ، وتحديداً من خلال حكم ثلاثة من سلاطينها ، واقفًا بالسرد عند السلطان عبد الحميد ، ولم يكن يدرى بالطبع أنّ السلطان عبد الحميد سيكون آخر سلاطين آل عثمان .

الدعوة الإصلاحية بالغة الوضوح فى الرواية ، ويمكن أن يراها القارئ تخايله فى كثير من الشخصيات والأحداث ، لكنها لا يمكن أن تنتج خطاباً يقنع القارئ بقدرتها على إنقاذ الدولة العثمانية التى مثلت صيغة قديمة للإمبراطوريات الشاسعة التى تضم عدداً كبيراً من الأعراق والقوميات والثقافات المختلفة ، وجميعها فى حال من التململ والثورة ، وهكذا أنتجت الرواية تمثيلاً لأزمة هذه الدولة ؛ عالم عجوز لا يمكن إصلاحه أو ترقيع ثقوبه ، نراه أمامنا وهو يسير نحو اضمحلاله وتبدده . وفى هذا العالم تبرز "أوروبا" فى هيئة "الآخر" المزدوج المعقد . وهى فى منظور سارد الرواية «المرآة» ، و «النموذج» ، و «الضاغط» من أجل «الإصلاح» الذى لا يمثل «قطيعة مع الماضى ، بل يعنى بالعكس تثبيت النظام القديم بمميزاته الجوهرية» (٧) .

وهكذا نبدأ فى الفصل الأول بمشهد تقليدى عن زوجين شيخين فى «عيد رمضان» وهما يجلسان وحيدين فى بيت عارٍ من أى شىء . ونعرف من حوارها أنهما كانا من «كرام الناس» ، لكن الحب والإصرار على تحدى المجتمع ، وصل بهما إلى البؤس الذى استشرى حتى الجوع . وفجأة ، تهبط عليهما «هدية» من السماء ، طفلة فاتنة ورسالة وكيس نقود . هذه الطفلة ثمرة حب بين «باشا» عجوز – هو زوج سلطانة مستبدة من نساء آل عثمان – وبين «جارية» شركسية ، ستفقد عنقها عقاباً لها على هذا الحب ، وستقدم رأسها المقطوعة على طبق للباشا العاشق . ويدرك القارئ من إشارات الكاتب أن هذه الطفلة ستكون بطلة قصة الحب التى اتخذها النص "تعلَّة" لفضح ما يجرى فى الدولة العلية من استبداد وفساد ، من خلال المغامرات والمؤامرات ، أى من خلال خلق حبكة تقليدية تعتمد على التشويق ، لكنها تُستثمر من أجل الغاية الأخلاقية .

ومن المنطقى فى هذا السياق أن نرى الأحداث من منظور سارد أخلاقى وثيق الصلة باللغة التقليدية التى تعتمد على العبارات المسكوكة والمجاز الشائع .

المجتلب من خزانة الثقافة العربية فى العصور الوسطى . إنّ اللغة التقليدية تخلق فضاءً يتأرجح بين التقليد والحداثة ، فضاء يكشف عن بطنه وتشبثه بما يعرفه ويألفه . لكنه من ناحية أخرى مخترق فى بعض مناطقه ، مخترق بما تحدثه الحياة الحديثة من ثقوب ، تبدو للكاتب التقليدى كأنها شوائب وعلامات تبدل وتدنٍ لا فى اللغة فقط ، بل فيما تشير إليه من أشياء وعناصر . أما الكاتب الإصلاحى فهو «إصلاحى فى السياسة واللغة» مما يعنى أنه يعى أن الشفرة العامة ، اللغة التى أحسنت التأشير والتدليل على العالم القديم الثابت لم تعد كذلك ، لقد بدأت تهتز وتختلط علاماتها وتتداخل ، ولذا تبدو باللغة الاضطراب ، وتقوم يد الكاتب الثقيلة المهيمنة بجمع الشتات وصقلها ، لتحسن التعبير عن هذا العبور الأليم إلى العصر الحديث . وهنا نلمس إحدى مفارقات هذا الضرب من الكتابة : الخطابة من فوق منبر الفن والأدب لتزيين التغيير السياسى إلى التحديث ، وفى الوقت نفسه التشبث بأهداب لغة تقليدية تحاول الحفاظ على ذاتها وقدراتها بوصفها لغة مقدسة متعالية على التاريخ ومكره .

محمد بدوى

الهـــوامش

(١) راجع : مقدمة الطبعة الرابعة من الرواية .

(٢) قال چورچى زيدان :

وقد رأينا بالاختيار أنّ نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصاً لأننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكماً على الرواية لا هى عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج ، ومنهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية ، وإنما جاء بالحقائق التاريخية بما يضلّ القراء . وأما نحن فالعمدة فى روايتنا على التاريخ ، وإنما نأتى بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استلهام قراءتها ، فيصح الاعتماد على ما يجىء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أىّ كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع فى الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيد بياناً ووضوحاً بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق .

موجود فى :

– عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية فى مصر ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ص ٩٥ .

(٣) مقدمة الطبعة الرابعة ، ص ٧ .

(٤) نفسه ، ص ٩ .

(٥) نفسه ، ص ٩ .

(٦) راجع : خطبة كتاب الجبرتى المسمى "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" ، ص ٥ – ٧ استخدم نشرة عبد العزيز جمال الدين ، مكتبة مدبولى .

وعن التاريخ بوصفه «علماًغير شرعى» اقرأ ملاحظات عزيز العظمة فى :

– عزيز العظمة ، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، مقدمة فى أصول صناعة التأريخ العربى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٣م .

وقارن عن التاريخ عموماً ، العمل الضخم لعبد اللّه العروى :

– عبد اللّه العروى ، مفهوم التاريخ ، جزآن فى مجلد واحد ، المركز الثقافى العربى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٢م .

(٧) عبد اللّه العروى ، مفهوم الدولة ، المركز الثقافى العربى ، ١٩٨١م ، ص ١٣١ .

(٨) تطور الرواية ، سابق .

مقـــدمة
الطبعة الأولى

كثر فى الشرق الميل إلى مطالعة الروايات الأدبية ، وكثر المشتغلون فى كتابتها بين معرّب ومصنِّف ، لكن أكثر هؤلاء الكتبة اختار منها النوع الغرامى المحض الذى لا شىء فيه سوى الفكاهة ، ولم يشتغل منهم بالروايات التاريخية إلا أفراد قلائل يعدون على الأصابع ، فى حين أن الروايات التاريخية تمتاز عما سواها بما تجمعه من لذة الفكاهة وفائدة التاريخ .

ولمَّا كان أعظم ما يهمنا من التاريخ ما تعلق بنا وقرب عهدهُ منا ، وكان له مساس حسِّى فى أحوالنا الحاضرة ولا سيما السياسى منها ، رأيت أن أقدم لقراء العربية عمومًا وللعثمانيين خصوصًا هذه الرواية التى اشتملت على ملخص تاريخ السلاطين العثمانيين الثلاثة سلفاء جلالة السلطان الحالى ، وهم : عبد المجيد وعبد العزيز ومراد ، وأن أودعها أنباءً كثيرة من أميالهم الشخصية ومذاهبهم السياسية ولُمعًا كافية عن كبار رجال السلطنة فى عهدهم . وقد دعوتها «أسرار القصور» ؛ لأنها حوت كثيراً من الأسرار غير المعلومة إلاَّ لأفراد قليلين ، وأملى كبير أنها ستحوز رضاء قرائها الكرام .

من باريس فى الثلاثين من شهر أيار سنة ١٨٩٧م .

أمين أرسلان

* * *

مقـــدمة

الطبعة الرابعة

لمَّا نشبت الحرب بين دولتنا العلية والدولة الإيطالية ، وأجمعت الجالية العثمانية فى الدِّيار الأرخنتينية على وجوب تعزيز بحريتنا بابتناء غواصة باسم جاليتنا المحبوبة تضم إلى أسطولنا ، فكرت طويلاً بطريقة أعضد بها هذا المشروع الوطنى الجليل ، فعنَّ لى ساعتئذٍ أن أعيد طبع هذه الرواية التى صادفت ما صادفته من استحسان القوم ، وأن أضيف ريعها إلى تعزيز ذلك المشروع .

وقد أجهدت نفسى طويلاً فى هذه الأيام الأخيرة للحصول على نسخة من إحدى الطبعات الثلاث ، فأعيانى البحث ولم أظفر بواحدة منها إلاَّ بعد طول التساؤل ، مما دلنى عَلَى أن اهتمام القوم بالكتاب كان متواليًا حتى نفدت كل طبعاته مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الروايات الشرقية على ما أظن .

وبالطبع أن الذى ساعد كثيراً على نشر الرواية هذا الانتشار الغريب هو السلطان المخلوع عبد الحميد الذى لما بلغه رنينها قام لها وقعد ولشدة جبنهِ حسب قوائم عرشه تهتز لدى حقائقها التاريخية وهو فى إبان صولته وعلى منصة مجده . فأوفد من قبله الوفود وبث العيون والأرصاد وظل مقتفيًا آثارها حتى عثر أخيراً على أكثر نسخها ، فاستحضرت إلى الآستانة ، وهناك أمر بحرقها – قيل على مشهد منه – ووهم حينئذٍ أنه قد طمس ذكرها ... وكأنما فاته أن أحب شىءٍ إلى الإنسان ما منعا .

وبعد زمن عاد الناس يلهجون بذكر الرواية ، وتضاعفت رغبة الجمهور إلى مطالعتها فاندفع بعضهم رغبة بالكسب فأعادوا طبعها مرتين دون علم منى .

هذا وأحسبنى بإقدامى على إعادة نشرها للمرة الرابعة أخدم كل ذى فكر حر وأجيب رغبة الكثيرين ممن فاتهم درس الكتاب واستيعاب حوادثه التاريخية التى ستكون بمثابة مثال أورده إلى القراء الكرام عن تقييد الأفكار والأقلام فى الدور الحميدى المشئوم ، وعن هلع ذلك السلطان لدى أقل تلميح إلى الحرية والإصلاح ولدى نشر أية الحقائق على أبسط علاتها .

فإلى العالم العربى أزف هذه الرواية رافلة بثوبها القديم ومتشحة بالحلَّة التى ألبستها إياها منذ أربع عشرة سنة وأنا مقصى عن بلادى فى إحدى زوايا عاصمة الفرنسيس ، آملاً أن تروق لقرائها اليوم كما راقت لهم بالأمس .

واللّه ولىّ الصادق الأمين .

عن بونس إيرس فى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٩١١م .

أمين أرسلان

* * *

(١)

هـــدية رمضــــان

كان ابتداء قصتنا يوم عيد رمضان المبارك من عام ١٢٦٨ للهجرة . وكان قد انقضى شهر ذلك الصوم المجيد في فصل الشتاء ، فاحتفل به أهل الآستانة كثيراً ، وأطلقت المدافع براً وبحراً إجلالاً وتبشيراً ، وزُيِّنت البوارج والدوارع الراسية فى البوسفور ، ورُفعت الأعلام العثمانية تخفق فوق رؤوس المآذن الشاهقة العديدة .

وكان الجوّ فى ذلك اليوم أدكن والسحائب سوداء والمطر يتدفق كمن أفواه القرب ، ولكن هذا كله لم يحل دون ازدحام الطرق والشوارع ، وقد زادها ازدحامًا تكاثر الحمالين الناقلين على رؤوسهم الأغنام المذبوحة والخدمة الحاملة أطباق الحلوى المغطاة بالشفوف الحريرية الوردية اللون .

وانقضى ذلك العيد فى مبادلة التهاني وتزاور العائلات بين رجال وسيدات ، فكانت النساء تبسطن بعضهنّ لبعض هدايا أزواجهنّ فى ذلك العيد من الحلى والجواهر والجوارى يتحدَّثن ويتفاخرن بكرم مواليهنّ وسادتهنّ ، وقد أكثرن جميعهنّ من أكل الحلوى والتدخين ، وشارك الفقير الغنى فى أفراح ذلك العيد . ذلك من فضل تلك العادة القديمة التى هى أن يَذْبَح كلُّ غنيٍّ أو وجيهٍ عدداً معينًا من الأغنام أمام عتبة داره ويفرقها على الفقراء تبريكًا وإحسانًا

* * *

وكان فى أعلَى محلة «الطوبخانة» بيت خشبى حقير تعصف ريح الشتاء فى جوانبه ، ويشعر الناظر إليهِ بأن أفراح ذلك العيد لم تطرقه . وكان فى الغرفة

الكبيرة منه شيخ هرم قد جلس مع امرأة عجوز حول مصطلى للنار يصطليان وليس فيه إلاّ الرماد . وكان الصمت سائدًا بين العجوزين ، فلما أُطلقت مدافع الغروب وصعد المؤذنون يدعون المؤمنين إلى الصلاة صاح الشيخ بامرأته قائلاً : أى فاطمة من كان يقول إنا سنصل يومًا إلى هذا الحد من الشقاء والفقر المدقع ... ها قد دخلنا فى اليوم الثانى ونحن بلا طعام نغتذى به ولا نار نصطلى حرارتها . لِمَ منعتنى هذا الصباح من الذهاب إلى دار رشيد باشا ؛ فلو تركتنى لمكنتك الساعة من الاقتيات بقليل من اللحم . ولكن آه من النفوس إذا كانت كبارًا أنسيتِ أن الشبيبة قد فارقتنا ، وأن الدهر قد حطَّ بنا ... فواللّه ليشقُّ علىَّ أن أراكِ فى هذه الحال ضئيلة هزيلة صفراء اللون ... فقاطعتهُ امرأته الكلام قائلة : خفّض عنك يا عثمان ، فإن الموت خير لدىَّ من أن أراك تمد يدكِ للسؤال والاستعطاء ... لا وألف لا . إن كريمة يوسف باشا لا تأكل خبز التسول ، وزوجها لا يطرق أبواب الناس ينتظر كالكلاب قطعة من اللحم . فتنهد الشيخ من قلب مقروح ، وقال بصوت منخفض : آه من الجنون . نعم إن الحب جنون ... نعم هذا الشقاء كله إنما هو ثمرة الحب :

الحب كالكاس قد طابت أوائله   لكنــه ربمــا مجَّــت أواخــرهُ

ثم صاح آه ياربى لِمَ عرفتنى بها ؟ كانت غادة غنية سعيدة هنية تركت كل شيء وتبعتنى وأنا لا أملك من حطام الدنيا إلاّ قلبًا محبًا كان لها مهرًا ... والآن هى تموت جوعًا ولا يمكننى أن أغذيها . فصاحت به العجوز : ما هذا القول يا عثمان ، أتجدف على اسم الخالق لأنه جمعنا سويًا ..؟ أىّ ذنب عليك . لو لم يحطَّ بنا الدهر لكنا فى أحسن حال وأنعم بال ، ولكن هذا كله قضاءٌ وقدر ... أخذ أولادنا وفلاذ أكبادنا ، وأضاع أموالنا ، ولا يحق لنا مع هذا إلا حمده على كل حال فى السراء وفى والضراء ، والمحن إذا تناهت انتهت ، والرزايا إذا توالت تولّت . ولا بدَّ أن يجعل بعد العسر يسرًا ، فدع عنك هذه الأوهام وقم بنا للصلاة ، فها مدافع الغروب قد أُطلقت وقد مضى النهار ، فلم يذكرنا صديق ولا جاءنا أنيسٌ مباركًا . هذه سُنَّة اللّه فى أرضه ، والذى نرجو رحمتَهُ ورضاه ...

قالت العجوز هذا ونهضت للحال ، فتوضأت بالماء البارد رغمًا عن البرد القارس والتفَّتْ بمنديلها وبسطت سجادتها وشرعت تصلى بحرارة وخشوع ، واقتفى زوجها أثرها وصلى بعدها . فلما فرغا عادا إلى حول مصطلى النار يصطليان ، وأخذت العجوز تحرك الرماد لعلها تجد فيه جذوة نار ، فلم تجد إلاَّ رماداً برماد . وجاءَ الليل بظلامه الدامس ، ولم يكن عندهما نورٌ فبقيا تحت جنح الظلام ، وأخذت الشفقة الشيخ على امرأته فنزع فروته وألقاها على منكبيها وقاية لها من البرد وساد الصمت مرةً ثانية ، وغاص كلٌّ فى أفكاره يتأمل شقاءَ حاله ...

وكانت تلك الليلة عاصفة والرعود قاصفة فتلمع سيوف البرق على صفحات الأفق فتنيرهم من آن إلى آخر . وكانت الموسيقى العسكرية تعزف بألحانها الشجية فى الثكنة القريبة منهما فتثير أشجانهما وتزيد فى قلبيهما الحسرات . وبينما هما على تلك الحالة وإذ طُرِق الباب بعنف شديد فذعرت العجوز وقالت : أسمعت طرق الباب ؟ قم مسرعًا يا عثمان وانظر من الطارق . فقام الشيخ يتحسس فى الظلام حتى اهتدى إلى زلاج الباب ففتحه فلم يجد أحداً والتفت فى الطريق ذات اليمين وذات الشمال ، فلم يلقَ فيه عابراً أو زائراً ، وكانت امرأته قد تبعته فسألته : ما هذا ؟

– لا أعلم ، فإنى لم أجد أحداً .

ثم حدق بعينيه فوجد شيئًا كبيراً ملقى أمام الباب وأبرقت السماء حينئذٍ فرأى طبقًا كبيراً مغطًّى بشفٍّ وردى فصاح : هذه « هدية رمضان » ، وخال له ولامرأته فى الوهلة الأولى أن الحمال قد غلط عن الطريق وأضاع العنوان ؛ لأنها كانت هدية رجل كبير وهما لا يعرفان أحداً من كبار القوم ، أو أن لصًا قد اختطف تلك الهدية وخاف أن يكتشف فألقاها أمام بابهما . ولمَّا رفع عثمان الشف وجد ورقة مطوية فقال : لا بد من معرفة المهدى والمُهدَى إليه ، ثم التفت إلى امرأتهِ وقال : ألا يوجد عندكِ شمع ؟

- بلى فيما أظن .

- أسرعى بعود .

فأسرعت وعادت فأشعلت واحداً وفضَّ الشيخ الورقة وقرأها فكان فيها ما نصه : « رمضان مبارك على فاطمة هانم الفاضلة . يصلك كل عيد فى رمضان مثل هذه الهدية إذا اعتنيتِ بالشىءِ الثمين الذى أُودعهُ إلى عنايتك وأسلمه إلى مروءتك ولا حاجة إلى التوصية بإفراغ الجهد حرصاً عليه » .

ورفع الشيخ المنديل الحريرى عن الطبق، وإذا به يرى فيه طفلاً صغيراً ابن أمسه على صدره كيس مملوءٌ ذهبًا فعرت الدهشة العجوزين وأخذا يتساءلان ما يكون من وراء هذا السِّرّ . ولكن الجوع كان آخذاً من الطفل فطفق يبكى ، فقالت العجوز : واحيرتاه كيف أغذيه هذا المساء ؟ ثم فكَّرت قليلاً وصاحت : إن جارتنا قد ولدت منذ عهدٍ قريب فسأذهب إليها وأرجوها المعونة ، والتفتت إلى زوجها فقالت له : أما أنت فاذهب إلى السوق قبل أن يقفل واشترِ لنا ما نحتاج إليه من الطعام والنور والتدفئة .

وهكذا فى أقل من ساعة من الزمن تبدَّلت حالة ذلك البيت وسكانه إلى حال أخرى ، واتصل الخبر سريعًا بمسامع الجيران فتقاطروا يهنئونهم بتلك الهدية ويتلطفون عنايةً بذلك الطفل الرضيع . وجلس الشيخ فى السلاملك (قاعة الاستقبال) مع جيرانه وكلٌّ يدعى صداقته وهو يفكر فى تقلبات الدهر ، ويقول :

واللـيـالى من الزمـان حـبـالى مـثـقـلات يـلدنَ كـل عـجـيـبـه

وإذا بامرأته أطلت من دائرة الحرم ، وقالت له : قد نسيت الحلوى يا عثمان فاذهب وابتع لنا شيئًا وافراً منها إكراماً لضيوفنا ، فخرج عثمان للحال ملبيًا الطلب ، وفيما هو عائد إلى البيت إذا به يسمع وقع حوافر خيل ، ثم أبرقت السماء فرأى

خصيًا من خصيان السراى السلطانية ممتطيًا جواداً عربيا كريمًا ومعهُ عبدٌ أسود من سيَّاس القصر فمراً من أمام عثمان وتفقدا ما هو حامل بيده وأخذا يبحثان ويتلفتان كمن أضاع فى التراب خاتمه ، ثم صاح الخصى بالخادم قائلاً : قد أضعت أثره (يا أحمد) ، ويستحيل أن يكون قد جاءَ إلى هذا الزقاق ، ثم أعمل المهماز فى شاكلة الجواد وخرج من الزقاق والعبد يعدو وراءَهُ كالكلب . فعرف الشيخ للحال أن البحث جارٍ عن الطفل ، وأدرك خطارة الأمر لأن البحث كان من السراى ، فلما وصل البيت طلب من الجلاس الصمت وأسدل السجوف خشية أن يستلفت أنظار المارَّة ، وكان كلما سمع حركة أو همسًا ظن أنهم جاءوا يطالبونه بالطفل ويذيقونه ألوان العذاب جزاء ذنب لم يرتكبه . وندم على إطلاع جيرانه على سرّه ، وعرف فساد رأيه وأن أقل وشاية كافية لهلاكه ، فأسرع فى وضع الخوان ودعا ضيوفه إلى الطعام ، ثم قدَّم القهوة والتبغ ، وجلس يفكر فى هذا الحادث وهو يحاول عبثًا إزالة علامة ارتباكه . وقد لحظ أحد الجلاس عليه ذلك فقال له : ما لك مفكِّراً كأن ليس العيد عيدك ؟

– قد مضت عليَّ مدة لم أذق بها طعم التبغ فأتلذذ به الآن فضلاً عن أن أيام الشبيبة قد مضت .

ثم تربص ريثما فرغت امرأته من إقراءِ ضيوفها فصرفهم جميعًا ، ولم يبق منهم إلا التى أرضعت الطفل فساومتها امرأته أُجرتها عن سَنَة واتخذتها للحال ظئراً له ، ولكن تلك الهدية فى تلك الحالة قد أدهشتهم إلى حدٍّ أن أذهلتهم عن معرفة الطفل إذا كان ذكرًا أو أنثى ، فقالت العجوز : سأُعطيها اسم ابنتى عائشة ، ما قولك يا عثمان ؟

– بالحق نطقتِ عسى تكون سلوى مصابنا .

والآن أرجو القارئَ الكريم أن يعود بى إلى ذكر حادثة جرت قبل ستة أشهر من هذا العهد .

(٢)

حَـمَّام الطوبخانة

لا يخفى أن يوم الذهاب إلى الحمام عند النساء التركيات من الأيام المعدودة عندهن للنزهة والسلوى ، ولذا يغتنمن أقل فرصة للتملص من ربقة الاحتجاب ، فيأخذن منذ الصباح بالتهيؤ والاستعداد فيحضرونَ المناشف المعطرة والثياب الحريرية الملونة ويجلين الطاسات الفضية ، ويشترين الأثمار اللذيذة والحلويات العديدة ، ويعتنين خصوصًا بالسجائر التركية لأنها سلوتهنَّ الوحيدة في مقاصيرهنَّ ، وما تكون ترى سلوى الطيور في أقفاصها ، فيلبسنَ بعد الغذاء « فراجياتهن [1] » ، وينتشرن في الأسواق أزواجًا وفرادى ، ويقفن أمام كل واجهة من مخازن الحلي والأقمشة لمشاهدة السلع كالأولاد الصغار . وقد اشتهر منذ عشرين سنة بين حمَّامات الآستانة العديدة حمام اسمه « الطوبخانة » حتى كاد يزاحم حمام « غلطه سراى » بشهرته . وما ذلك إلا لشهرة غسالاته اللائي كنَّ يكثرن من وصف الأدوية المختلفة للحمل وأمراض العقل والبدن ، وعبثًا كان الإنسان يحاول إقناع النساء بخرافة ما يسمعن وأضرار ما تصف لهنَّ الغسالات من الأدوية ، فإنه كان كمن يضرب في حديد بارد . وكان هذا الحمَّام فخيم البناء على الهندسة العربية له باب عظيم من الرخام الجميل .

فحدث أن في غرَّة جمادى الأولى من تلك السنة ، أي قبل ستة أشهر من عيد رمضان ، اكتظَّ ذلك الحمام على اتساعه بالمستحمات . وكان بين غسالاته امرأة عجوز اسمها فاطمة لا ينظر إليها أحد بعين الاهتمام لفقرها المدقع أولاً ولأنفة نفسها خصوصًا ، فبقيت ذلك النهار بلا عمل على الرغم من كثرة الزائرات ، فجلست تنظر بعين الحسد إلى زميلاتها وهنَّ منهمكات وهي مكتوفة اليدين ، وإذ رفع ستار الباب ودخلت جارية زنجية تحمل صرَّة ثياب وراءَها امرأة في مقتبل العمر جميلة الصورة معتدلة القوام على سذاجة في الملابس ، فظنَّ الحاضرات أنها زوجة «أفندي عادي» ،

---

(١) جمع فراجية ، والفراجية عند الأتراك كالأزرار عند الشرقيات المسلمات .

ولاسيما لأنها لم تكن مصحوبة إلا بجارية واحدة والنساءُ التركيات يفاخرن بكثرة الجوارى والعبيد والخصيان . فقامت فاطمة للقائها مؤملة أن تلقى منها التفاتًا وإقبالاً وقالت لها :

– هانم أفندى قد أُخذت جميع المحلات فى هذا الطابق ، فهل تريدين الصعود إلى الطابق الأعلى ؟

– لا بأس .

فتقدمتها فاطمة تدلها وأدخلتها إلى مخدع جميل ، وبسطت فيه سجادة عجمية وساعدتها على نزع «فراجيتها» ، ثم سألتها أتريدين غسالة أو تنوب الجارية منابها ؟

– بل أريد غسالة ... وأريد أيضًا أدوية ... وصبغ الحياءُ وجهها ...

فقالت فاطمة العجوز فى نفسها ... وأىّ دواءٍ تريد هذه المرأة الجميلة ذات البنية القوية ، ثم قادتها إلى صحن الحمَّام الذى ينحصر فيه البخار فدهشت المستحمات من جمال تلك الزائرة الجديدة واعتدال قوامها وبياض بشرتها الناصع وقد سدلت شعرها الحالك على منكبيها فأزعجها تصويب الأنظار إليها ، وطلبت غرفة مستقلة فقادتها الغسالة إلى مخدع جميل وأجلستها على مقعد من رخام وشرعت تسعى فى تهيئة ما يلزم لها ، وأما الجارية فبقيت فى الطابق الأعلى تحرس ثياب سيدتها فجلست المرأة ، ثم تنهدت الصعداء من قلب مقروح ووضعت رأسها بين يديها مفكرة وقد كبر الهمُّ عليها .

فلما رأت الغسالة حالة تلك السيدة رأت من باب الملاطفة أن تسألها عن حالها فقالت لها :

– هانم أفندى مالكِ حزينة كئيبة ؟ هل ينقص هذا الجمال الفتان شيءٌ من السعادة والهناءِ ؟

– واحسرتاه ، أى سعادة وأى هناء ! إنّى أشْقَى خَلْق اللّه كأنى من عبَّر عنه الشاعر بقوله :

ولو كان همٌ واحدٌ لاحتملتهُ ولكنهُ همٌ وثانٍ وثالث

فأجابتها العجوز : لو تعلمين شقائى لعرفتِ أنكِ سعيدة ، وأن فى الدنيا مَنْ هو أشْقَى منكِ بكثير .

– أحقًا أنتِ تعيسة نظيرى ، أخبرينى مصابكِ ، فإنى أشعر بميل وانعطاف إلى كل مسكين .

فشرعت العجوز تغسلها وتدلك بدنها وتقصُّ عليها ما أصابها فى حياتها من الشّقاء ، وكيف أن الدهر قد أخنى عليها إلى حدّ أن اضطرت أن تكون غسالة فى الحمَّامات بعد أن كان عندها العبيد والجوارى . فلما فرغت من حديثها قالت المرأة :

– أحقا قد احتملتِ كل هذا الشقاء وأصابكِ كل هذه المصائب ؟ نعم ، إنه لمصاب عظيم أن تسقط امرأة شريفة نظيركِ إلى هذا الحد من الفقر والمسكنة ، ثم تبسّمت وقالت : نحن فى يد العناية كحبات الرمال إذ تتلاعب بها ريح السموم .

ولمّا فرغت من الاستحمام وقفت وارتدت ملابسها الحريرية وسارت إلى غرفة الاستراحة تطفئُ ظمأها بشرب المثلجات والمبردات والتدخين ، وأمرت بمثل ذلك إلى العجوز ، ثم جلست وقد عاودها الهمّ وبدا على وجهها الاضطراب ، وأرادت أن تطلب الدواء فمنعها الحياء ، ولكن ما عتمت أن استأنست من العجوز لطفًا فتغلبت على حيائها وأمسكت بيد العجوز وقرَّبت فمها من أذنها وقالت لها همسًا بعد أن صبغ الحياء وجهها :

– يقولون إنكِ ماهرة فى وصف الأدوية ... فأرجوكِ أن تصفى لى دواءً ... ولم تجسر أن تسميه أو تعنيه .

فقالت العجوز وقد فهمت ما تريد : لا أشير عليكِ بأخذه لأنه يعرّضكِ لخطر الموت وأنا الوحيدة فى هذا المكان التى تعارض هذه العادة السيئة .

فخجلت الهانم من هذا الكلام وغطّت وجهها بيديها حياءً وطفقت تبكى .

– لا أريد هانم أفندى توبيخكِ وقد عرفتُ سبب حيائكِ وخوفكِ ، فتلك إرادة اللّه لا يحق لأحد معارضتها .

– فأجابتها هذه باكية : قد قلت الحق ، ولكن لا بد لى من شرب ذلك الدّواء لأنى هالكة على الحالين ، فإذا ما هيأته لا أدرى إذا كان عندى جرأة كافية لتجرّعه . قالت هذا وضجّت بالبكاء والنحيب .

– ما معنى هذا البكاء ... عفواً على جرأتى مولاتى ... وإنما أريد مشاطرتك مصابكِ فقلبى منعطفٌ بكليته إليكِ .

– إن من الفؤاد إلى الفؤاد سبيلاً ، أنا شقية ولا أجسر أن أبوح بشقائى لأحد فى العالمين على أنه :

فــلا بــدَّ من شكوى إلى ذى مــروءةٍ   يؤاســيكِ أو يســليــكِ أو يتــوجعُ

وقد عيل اصطبارى وطفح كيل همومى ، ثم صمتت هنيهة ، وقالت :

أعيرينى سمعكِ ... إنى مذنبة لدى مولاتى ، ثم تداركت قولها فقالت : لدى الهانم أفندى وأنا مدينة لها بكل شيءٍ ، ولكن النصيب قد قدَّر فكان ... فالباشا متغيب الآن ولا يمكنه أن يحول دون انتقام الهانم منى وقد عرفت هى ذنبى وتروم منى إخفاءَه ... قبل رجوع زوجها :

– وهل للهانم أولاد ؟

– لا ، وهذا مما زاد فى حنقها .

ففكَّرت العجوز ، قليلاً وعضّت على شفتها السفلى مفكرة ، فقالت لها الهانم :

– حاولت عبثًا إخفاءَ إثمى والتكفير عن ذنبى ، ولكن هذا ذنب لا يمحى إلاَّ بالإثمِ نحن وأسفاه البنات الشركسيات يتركنا آباؤنا منذ نعومة أظفارنا فيلتقطنا الغرباءُ لجمالنا فنقضى حياتنا وليس لنا أهل ولا ولد ، فإذا شعرنا بمولود فى أحشائنا كان ذلك عزاءَنا الوحيد وموضوع حبنا وكعبة آمالنا ندافع عنه بأزواجنا ، ولكن واحسرتاه

هو كالزهرة لا تكاد تفتح حتى تقطف وكالغصن لا يثمر حتى يُقصَف وأنا مع شقائى أشعر بلذة بما أنا فيه .

فاغرورقت عينا العجوز أسفًا لحالة المرأة .

– آه قد رقَّ قلبكِ لحالى ورثيت لمصابى ... جُزيتِ عنى خيراً ... هذه هى المرة الأولى التى شعرت فيها بحيٍّ يشاركنى فى عواطفى ... والآن أرجوكِ أن تقنعينى بالعدول عن عزمى والإقلاع عن جرأتى ... آه إنى مدفوعة إلى هذا الطلب ... مرغمة عليه ... آه قد وهنتْ قواى وحُلَّت عزائمى . قالت هذا وانطرحت بين ذراعى العجوز تجهش بالبكاء .

فأخذت العجوز تقبّلها وتهدئُ روعها تخفيفًا لمصابها ، ثم قالت :

– لا يحق لى أن أعلم بأكثر مما علمت ، ولا أن أعرف اسم سيدك ، وأصرّح لك بامتناعى عن أن أمدّ يداً لصنع ذلك الدواء المخالف لذمتى ولمشيئة الخالق – سبحانهُ وتعالى – فتشجعى يا بُنيَّة ، واعتصمى بالصبر الجميل ؛ فاللّـه القادر على كل شيء ينجيك ، ويمكنك التخلص من انتقام الهانم إذا تظاهرت بالخضوع لها والامتثال لأمرها . أما أنا فمقيمة فى محلة الطويخانة فى بيت خشبى حقير فى الزقاق المعروف «بالشبوقجى» ، ومهما كان بيتى صغيراً حقيراً فهو يسعكِ وولدك والبيت الضيق يسع ألف صديق فثقى بإخلاصى وصفاء نيتى ، واعلمى أن لكِ فى قلبى محلاً رحيبًا .

– جزيتِ خيراً يا فاطمة ، وأخذت يد العجوزة فقبلتها اتباعًا للعادة التركية ، ثم قالت سأذكركِ ما دمت حيَّة ، وسأتبع نصائحك ، وأسأل اللّـه أن يباركك لأنكِ لم تخيبى رجاءَ «إقبال» المسكينة .

ثم لبست ثيابها ، وخرجت مطمئنة الفؤاد قليلاً فتقدمت الجارية ، وقالت العجوز : هل لكِ أن تخبرى «أحمد» أن يتقدم بالعربة ، فخرجت العجوز إلى باب الحمَّام وصاحت يا أحمد ، فتقدم عبدٌ أسودُ كبيرٌ ؛ فقالت لهُ : أخبر الحوذى أن يتقدّم بعربة الهانم ، فأشار إلى الحوذى ، ولما دنت العربة من أمام الباب رأت العجوز الطغراءَ العثمانية

منقوشة على العدة فأخذتها الدهشة لما عرفت أن تلك المرأة ليست جارية لأحد الباشاوات ، بل إنها من الحرم السلطانى ، ثم تقدمت الهانم «إقبال» بردائها البسيط ونقدت العجوز ديناراً عثمانيًا وشكرتها كثيرًا وركبت فسارت بها الخيل تنهبُ الأرض نهبًا .

وفى المساء عادت العجوز إلى بيتها ، وأخبرت زوجها بما رأت من أمر تلك الفتاة التركية ، وأخذ العجوزان يتساءَلان من تكون هذه ؟ وما هو شأنها ؟

ثم مضت الأيام والأسابيع والشهور على تلك الحادثة فنسياها تمامًا ، وذهب الصيف والخريف وجاءَ الشتاءُ بقرِّه حتى كان ما كان من أمر عيد رمضان والهدية . فلما أخبرها زوجها بالتقائه بخصىِّ السراى وما سمعه لما نادى الخادم «أحمد» فكرت بهذا الاسم لما نادته هى فى الحمَّام كما تقدم .

فتأكدت حينئذ أن الطفلة هى ابنة إقبال بعينها ، وأنها قد حفظت وصيتها ، ورأت هى وزوجها من باب الحكمة والصواب أن يهجرا محلة (الطوبخانة) خوفًا من بث العيون والأرصاد أو من وشاية الجواسيس والحساد فذهبا مختبئين فى قرية فى أعالى البوسفور يقال لها (بايكوس) فى ناحية اسكى دار ، وأفرغت المرأة جهدها اعتناءً بالطفلة .

ومما زاد العجوز اقتناعًا بأن الطفلة هى ابنة إقبال أن وجدت فى طاقيتها خاتمًا ذهبيًا مرصعًا بحجر كريم من الزمرُّد رأتْه فى خنصر إقبال لما جاءت مستحمة ، ودرءًا للشبهة ومنعًا لاقتفاء الأثر أشاع الشيخ فى محلته أنهُ عازم على الإقامة فى إستامبول فى محلة (شيخ زاده باشى) ولم يصحبه معه إلاَّ الظئر التى رضيت أن تكون للطفلة مقام أُمها .

وشرعت فاطمة من ذلك العهد تفرغ الجهد سعيًا وراء معرفة مقرِّ إقبال فى القصر السلطانى لتخبرها عن مقامها الجديد ، ولكن قد كان دون ذلك أهوال ؛ إذ كيف يتسنى لها معرفتها بين مئات من السرارى والجوارى فى ذلك القصر العظيم . ففكر

زوجها الشيخ طويلاً ، فرأى أن أحسن وسيلة هى أن يذهب كل يوم إلى نواحى القصر السلطانى متنزهًا يترقب خروج الخدم والخصيان ورجوعهم حتى يعثر بالخصى أو الخادم (أحمد) الذى لقيهما أثناء رجوعه إلى البيت مساء عيد رمضان . فتزيا بلباس بائع حلويات ، واشترى علبة نقالة وملأها من أنواع الحلوى المختلفة ، وصار يتأبطها كل صباح ، فيعبر البوسفور قاصداً سراى (طلمه بغجه) التى كان يفضلها السلطان عبد المجيد على جميع قصوره .

وكان الخدم والخصيان يكثرون من الترداد إلى ميدان السراى فيجىء عثمان بعلبته ويقف فى الطريق المؤدية إلى شارع (بشكطاش إلى أورطه كى)، فلم يلبث طويلا حتى أصبح جميع خدم السراى وحشمها من معارفه ومعامليه ، وكان هو يتفحصهم واحداً بعد واحد ، فتحقق أخيراً أن الخصى وأحمد ليسا بينهم ، وكانت صورتهما قد رسخت فى ذهنه ولئن كان لم يشاهدهما إلا لحظة واحدة لما برقت السماء ، ولكى يبالغ فى التأكيد ادّعى يومًا أن خصيًا اشترى منه حلوى بالأمس بثلاثين بارة لم ينقده إياها فجاءَ الخصيان بعضهم بالبعض وهو يتفحصهم جيداً ، فتأكد أن الخصى الذى يطلبه ليس بينهم ، فعزم حينئذٍ على الانتقال إلى سراى أخرى ، وظلّ على هذا المنوال من البحث والتنقيب مدة ثلاثة أسابيع يجتاز البوسفور كل صباح ، ويقف على قارعة الطريق تحت المطر الوابل فى ذلك الشتاء القارس حتى عثر أخيراً على ضالته المنشودة ، فرجع ذات يوم إلى قريته فرحًا مسروراً وألقى علبته فى زاوية البيت ، وقال لامرأته : من تأنى نال ما تمنى ، وكل من سار على الدّرب وصل ، لا حاجة لى بهذه العلبة بعد الآن ، فقد عرفت السراى ، ولقيت الباب وجاء دورك وعليك تدبير حيلة نسائية للوصول إلى إقبال :

– أما الحيلة فهينٌ تدبيرها ؛ فعند أى هانم هى ؟

– عند السلطانة عليّة هانم عمّة مولانا السلطان وقرينة محمود باشا داماد .

– ياربّاه ... أهى عند تلك السلطانة الظالمة ... أقسى امرأة خلقها اللّه فى آل عثمان ؟!

ثم قالت : عسى أن تكون الأيام والسنون قد دمثت شيئًا من أخلاقها ، ولكن مهما يكن من أمرها فلا بدّ من الوصول إلى إقبال وعلى اللّه الاتكال .

- إن شاء اللّه .

(٣)

فطور ملوكى

إذا سرّح الناظر طرفه فى مبانى الآستانة ومناظرها وجد أن من إبداع قصورها وسراياها جمالاً القصر الكائن على شاطئ البوسفور عند مدخل الآستانة المعروف باسم (صالح بازار) تطلُّ إحدى وجهاتـه على الطريق المؤدية إلى (طلمه بغجه) وتشرف الأخرى على بحر مرمرا ، فيرى الناظر منه الآستانة بمبانيها وقبب جوامعها ومآذنها ، ويرى أمامهُ الزوارق العديدة ماخرة بين شاطئَىّ أوروبا وآسيا . هذا هو قصر السلطانة عليَّة هانم .

ففى مساء ليلة من شهر صفر كانت السلطانة المشار إليها جالسة فى غرفتها مفكرة فى أمر مهم تقلب بيدها سبحةً من حبّ العنبر ، والجوارى من حولها واقفات صامتات مكتوفات الأيدى خاشعات البصر ينتظرنَ أقلَّ إشارةٍ تبدو من سموّها ليتسابقن إلى امتثالها . وكانت الريح عاصفة والرعود قاصفة وأمواج البوسفور تتلاطم فيتضاعف دويُّها فى ذلك الليل البهيم والسلطانة معيرة أذنها كأنها تنتظر أمرًا كبيرًا .

ثم دقت الساعة الرابعة من الليل فرأت السلطانة أن قد طال السهر ، فأشارت إلى الجوارى والسرارى بالانصراف ، فانصرفن وقد مشين القهقرى ، ولكن تقدمت سرّية شركسية الأصل بارعة الجمال طويلة القوام وتجاسرت بأن سألت السلطانة إذا كانت تأمر بمساعدتها على نزع ثيابها .

– لا يا إقبال هانم لا أُريد أحداً . انصرفى حالا لأنى أروم انتظار الباشا وحدى هذا المساء .

فامتثلت إقبال الأمر وخرجت منكسة الرأس وقد طار قلبها هلعًا . وعادت السلطانة فغاصت فى بحار التأملات ، وكانت قد كبرت وشاخت وذهب ما كانت عليه فى أيام صباها من الجمال القليل ، على أنها كانت مع ذلك تتزين وتتبرَّج كأنها تريد أن تعود إلى أيام الصبا ، ولكن هيهات : فلا يصلح العطار ما أفسد الدهر .

فلما ابتعدت الجوارى رُفع ستار باب مجاور ، وبرز منه خصىٌّ لم تشعر به حتى صار أمامها فسألتهُ : ما وراءَك يا على ؟

– لقد صدق مولاتى الباشا بقوله ؛ فهو مدعوٌّ هذا المساءَ للطعام عند الصدر الأعظم .

– ثمَّ .

– قد أفرغت الجهد امتثالاً لأمر سموّك فى البحث عن الأمر الذى يهمكِ ، ولكنى لم أقف لهُ على أثر ، وأرى من العبث إتمام البحث .

– أتظنني واهمة أو مخدوعة ؟

– كلا مولاتى ، ولكن إخصامنا أو بالحرى إخصام سموك يخفون عنك الحقيقة إلاَّ إذا بحثتِ عنها من صاحبها ...

– أمجنونٌ أنت ؟ أتظن أن ليس عندى جرأة كافية على الانتقام ممن يمسُّ شرفى أيًا كان .

– لم أرد هذا بقولى مولاتى .

ثم تقدم خطوتين إلى أمامها ، وقال لها خافضًا صوته :

– يتعذر لا بل يستحيل معرفة الحقيقة من إقبال وقد جربْتِ فوجدتِ أن الوعد والوعيد لم يفيدا شيئًا ، ولا يمكنكِ بعد هذه الساعة الوقوف على الحقيقة إلاَّ من دولة الباشا نفسه .

أما السلطانة فاكتفت بهز رأسها استخفافًا ، فقال لها الخصى :

– لا أجهل يا مولاتى أنهُ متى كان صاحيًا من سكره لا يقرُّ بشيءٍ ؛ لأنهُ شديد الميل إلى إقبال ، ولكن متى لعبت الخمرة برأسهِ سهل عليكِ الوقوف على أسراره ، وسيرجع هذا المساء مترنحًا ...

فقاطعته الكلام ، وقد انتبهت إلى قولهِ فصاحت بهِ : أصبت ... وحزرت ... سرْ حالا إلى الحرم ، ولا تدع أحداً من السرارى أو الجوارى أن يقلق راحتى بعد هذه الساعة ، وبلِّغ أمرى إلى أغا دولته أن يخبر مولاه بأنى فى انتظارهِ ، وأنى آمرة لهُ بالدخول علىَّ فى أى ساعة رجع .

فانحنى الخصىُّ ممتثلاً للأمر الكريم ، وخرج فرحًا مسرورًا .

ولا شك أن القارئ قد عرف أن هذا الخصى هو الذى ذهب إلى محلة الطوبخانة مع أحمد للبحث عن الطفلة مساء عيد رمضان .

ولم تمض ساعة من الزمن على ذلك الانتظار حتى سمعت السلطانة وقع حوافر الخيل فى صحن الدار ، فعرفت أنها عربَة الباشا زوجها ، أما هو فلم ينحدر منها حتى تقدَّم إليهِ الأغا وبلغه أمر السلطانة . فعلا وجههُ الاضطراب وخاف وقلق وظنَّ سوءًا ، ولكنهُ تجلَّد وصعد إلى غرفة السلطانة وهو يكاد لا يقف على قدميه من السُّكر ، فلما دخل عليها ووجدها باسمة زال عنهُ القلق ، وسرَّت هى لما رأتهُ فى تلك الحالة ، فتقدَّم إليها مسلمًا كما يسلم العبد على مولاه ، أما هى فأعطتهُ يدها فقبلها مرارًا ، ثم قالت لهُ :

– تفضل باشا أفندى حضرتلرى .

– أمرتِ سموُّكِ الأغا أن يبلّغنى أمركِ السامى بشرف المثول بين يديكِ أية ساعة رجعت ، فأقلقنى هذا الأمر خوفًا من أن يكون قد أصاب صحتكِ الثمينة انحراف .

– أى عزيزى محمد ألا تظن سببًا لرؤيتك إلاَّ المرض ، فهل تكرهنى إلى هذا الحد ؟

فأندى جبين الباشا من العرق ، ولم يفهم حرفًا من هذا السؤال ؛ فتقدمت إليه ومسكت بيده متلطفة قائلة :

– لقد أخطأتُ نحوكَ وأذنبتُ لديكَ ؛ فها قد مضى ستة أشهر وأنا حردة عليك ، ولقد أسأتُ الظنَّ بك ، وندمت الساعة فأبعدتُ الجوارى لألتمس منك عفوًا عن قساوتى الماضية وظلمى ... ثم لصقت بجانبِه وسألته قائلة :

– أفى قلبك بعد أثرٌ من الحب لى ؟

– مولاتى قد غمرتنى لطفًا ، أتلتمسين منى العفو وأنا المذنب المسىءُ ؟

– إذًا تعترف بأنك مذنب أيضًا . لقد زدت فى عينى اعتبارًا وفى قلبى حبًا بهذا الإقرار ، وتعترف أيضًا أنى لست بمذنبة ... أى محمد ألا ترى بكائى ؟! ومسحت دموعًا كاذبة .

أما الباشا فكان قد أعماهُ السكر ، وظنَّ نفسه فى منام ؛ لأن السلطانة لم تعوِّده منذ اقترن بها هذا اللطف ، ولم تُسمعهُ من قبل مثل هذا الكلام .

وغلب عليه السُّكر والنعاس فقال لها :

– خففى عنكِ مولاتى لقد كنت مصيبة فى غيرتكِ وحنقك ... وأنا وحدى المذنب لديكِ وأنتِ الملاك الكريم .

فتجلَّدت السلطانة ، وأخفت غيظها ، ثم تنهدت وقالت :

– أعفو عنك على شرط أن تقرّ بالحقيقة كلها ، وألاَّ تخفى علىَّ شيئًا ، ومدَّت يدها إلى الباشا فقبَّلها مرارًا .

– لم أخفِ الحقيقة عنكِ ، وإنما عنفوانك حال دون إبلاغك الحقيقة ، ولقد كنت تناسيت تلك الحادثة لو لم تأخذنى الشفقة على تلك المسكينة ...

فانتفضت السلطانة حنقًا من هذا الكلام كما ينتفض العصفور بَلَّلَه القطر ، ولكنها تجلّدت رغبةً منها فى معرفة السرّ المكنون ، فاتكأت على كتف زوجها ، وقالت لهُ باسمة :

– إلى أين أرسلت هدية رمضان ؟ لِمَ لم تكل إلىّ تربية المولود ... فقد كنت بذلت جهدى اعتناءً به ولا سيما لأنى لم أُرزق ولداً .

فحدّق الباشا بها ، وظنّ نفسهُ فى منام أو ما يسمعه أضغاث أحلام ، فسألها مبهوتًا حائرًا :

– كيف ... أنت ... تتنازلين ... إلى تربيته ، من أخبركِ ؟

– عرفت كل شىءٍ ، ولم تخفنى خافية ، ولهذا أسامحك لأنى عرفت أن الخوف من انتقامى حال دون إقرارك بالحقيقة ، ولهذا السبب وضعت المولود بمساعدة إقبال فى طبق العيد وأرسلته إلى محلة الطوبخانة ...

فأشار الباشا برأسهِ مصادقًا على قولها ، ثم تلجلج لسانه وقال : صحيح سلمهُ أحمد ... ورأت السلطانة أن النعاس قد استولى عليه وغلبهُ السكر فلم يعد يحتمل النطق ، فأخذت تهزّه وتقول له :

– أفق قليلاً ... تَذكّر إلى مَنْ سلمهُ أحمد .

– لا أذكر ... شيئًا ... وأقسم لكِ أنى ... لا أعرف ... إلاّ اسم العجوز ...

ودمدم كلمة لم تفهمها السلطانة ، وانقلب على المقعد ، وبدأ يغطُّ غارقًا فى سبات عميق .

وعند ذلك بلغ هياج السلطانة حده ، فدفعت باب الغرفة التى كان الخصى بانتظارها فيها ، وصاحت به :

– لقد أصبت فيما ظننت ، ثم جلست وقد زفرت زفرة شديدة من الغضب ، وتلجلجت شفتاها ، واصطكت أسنانها ، وجحظت عيناها ، وانتفخت أوداجها ؛ فقال لها الخصى :

– خير إن شاءَ اللّه .

– قل شرٌ : لقد اعترف الباشا بكل شيءٍ في سكره وقد سخرت إقبال بي ، فهي لم تشرب الدواء الذى أمرتها بشربه يوم أرسلتها إلى حمَّام الطوبخانة ، ولكن سترى عاقبة مخالفة أمرى ، ثم ضحكت ضحك الحنق المغتاظ وصاحت : أى نعم هى الولود وأنا العقيم .. فسألها الخصى :

– وأين المولود ؟

– هو فى المكان الذى ذكرت . نقله أحمد يوم العيد مع هدايا رمضان . ويظهر أن السعد قد خدم تلك الشقية ؛ لأنها قد وضعت حملها يوم العيد أثناء تغيبى فى السراى الهمايونية ، فأرسلوا الولد إلى الطوبخانة قبل رجوعى .

– خفِّفى عنكِ مولاتى فلا بد من وجود المولود ويمكنكِ الانتقام .

– نعم أريد انتقامًا هائلاً ، أنكون سلطانات ويكون لنا ضرائر . إذا ترمَّل أزواجُنا فلا يحق لهم من بعدنا الزيجة ، ومتى رفعنا رَجُلاً إلى شرف حبنا لا يحق له أن يلتفت إلى سوانا أحياءً كنا أو أمواتًا .. ثم التفتت إلى الغرفة التى كان راقدًا زوجها فيها وصاحت : واللّهِ سأنتقمنَّ يا محمد وأى انتقام ...

وأفاق محمد باشا فى الغد عند الظهيرة غير واعٍ شيئًا من حديث الأمس ، ولا غرابة فكلام الليل يمحوهُ النهار ، وكان قد ازدحم الزوار عند بابه وفى قاعة استقباله وجلُّهم من كبار المأمورين وطلاب الوظائف ؛ لأن السلطان عبد المجيد كان فى ذلك العهد مريضًا قليل العناية بشئون دولته ، وكان محمد باشا صهرهُ من المقرَّبين إليه النافذين لديه ، والناس فى الشرق قد اعتادوا أن يدوروا مع الزمان كيفما دار . فخرج يقتبل زوَّارهُ بالبشاشة التركية وصرفهم جميعًا مطيبًا خواطرهم بالجواب التركى المشهور الذى ذهب مثلاً وهو « بقالم » ؛ أى سنرى .

ثم دخل عليه الخصيُّ ، وعرض أن عجوزًا فى الباب تريد التشرف بناديه :

– قل لها أن تنتظرنى فى دائرة الحرم ، وأعدّ لى الطعام ، فقد استولى علىَّ الخوار ، ولا أؤجلنَّ طعام من أجل أحد فكيف من أجل عجوز ...

فعاد الخصىُّ على أعقابه وقاد العجوز إلى دائرة الحرم وأمرها بانتظاره وقد عرف القارئ لا شك أنها «فاطمة» بعينها ، فسألت الخصى :

– أسمُّو السلطانة فى السراى ؟

– كلا قد خرجت فى هذا الصباح .

– ألا يمكننى مقابلة أحد من الجوارى أو السرارى ؟

– قد رافقنها جميعهنَّ .

– أجميعهنَّ ...؟

– نعم ... جميعهنَّ .

فتفاءلت العجوز من هذا الجواب ، وقالت عساهُ خيرًا ، ثم جلست تنتظر المثول بين يدى الباشا قلقة وقد وطّدت عزيمتها على اطلاعهِ على كل شىءٍ ، فلم تلبث طويلاً حتى دخل الباشا عليها وسألها قائلاً :

– هانم أفندى ماذا تريدين منى ؟

– باشا أفندى حضرتلرى ربما لا يجهل دولتهُ اسمى ... أنا فاطمة ابنة يوسف باشا المصرى وقرينة عثمان باشا الحلبى .

فحدّق الباشا بنظره إليها مستفهمًا ، فقالت : ربما خفى عليك هذا الاسم ... أنا التى كنت مقيمة فى الطوبخانة لما وصلنى فى مساءِ عيد رمضان ... فقاطعها الباشا

متخوفًا وصاح باللّه عليك لا تنبسى ببنت شفة . أتجهلين أنك فى دائرة الحرم وهو موضوع سوءِ الظن والتجسس ، ثم خفض صوته ، وقال لها :

– ماذا جاء بك إلى هنا ؟ أخفى عليكِ أنك تعرضين «إقبالاً» إلى الهلاك ؟

– لا تخش أمرًا مولاى ، فقد كنت دبرت حيلة من غير أن تبعث أحدًا إلى سوءِ الظن ، ولكن لم تُجدِ شيئًا ؛ لأن سموّ السلطانة قد خرجت هذا الصباح .

– فصاح بها الباشا مستفهمًا : أخرجت ؟ وإلى أين ؟

– لا أعلم ، فهكذا أخبرنى الخدم والخصيان ، وأخشى أن يكون من وراء ذلك شرٌّ ، فقلق الباشا وهبَّ لساعته يطوف فى السراى يستدعى الخدم فيسألهم عن سبب خروج السلطانة فأجابوهُ جميعًا بأنها سارت إلى السراى الهمايونى منذ الصباح مصحوبة بجميع جواريها وسراريها . فعاد إلى الغرفة وقد غلب عليه الاضطراب ، وعلت على وجهه أمارات الاكتئاب ثم جلس مفكرًا وقد عاد إلى ذهنهِ ما كان منها فى المساءِ ، ثم قال لها : لا شك أنها خدعتنى واحتالت علىَّ حتى عرفت موضع سرّى .

– وهل أطلعتها عليه وعرفت بولادة عائشة ومقرّها ؟

– نعم ... واأسفاه .

– كيف كان ذلك ...؟ وماذا قلت لها مولاى ؟

تبًا للسُّكر تبًا للخمرة ، ولعنة اللّه عليها وعلى شاربيها ، هى السبب .. نعم هى كل السبب ... كنت مدعوًا بالأمس إلى العشاء عند الصدر الأعظم فشربنا منها كثيرًا ، ولما عدت وكان قد دبَّ دبيبها فى رأسى استدعتنى السلطانة وأخذت تتملقنى وتلاطفنى حتى خُدِعت فاعترفت بذنبى ، وأظننى صرّحت باسمك أيضًا .. وهى كانت عالمة بمقركِ .

– يا للمصاب ... يا للداهية الدهماء .... اللّه أعلم أية مكيدة تكيد لى ولها ...

– نعم اللّـه أعلم ... وبظلمـها أدرى وقلقى شـديد ؛ لأنها قد استصـحبن «إقبالاً» معها ، ثم صمت قليلاً وقال : هانم أفندى أرجوك الرحيل من هـذا المكان ريثما يتسنى لإقبال الذهاب لرؤية طفلتها .

– قرّب للّـه ذلك اليوم مولاى .. وشفعنا برحمتـه .

– اتكلى على اللّـه وثقى بى .. سأكون لك ولها سنداً وعضداً ... وبالمناسبة ماذا سمّيتِ الطفلة ؟

– عـائشة يا مـولاى على اسم ابنتى المفـقـودة ، فإذا كنت تريد أن أدعـوها باسم آخر ، فلك الأمر وعلىَّ الامتـثال .

– لا يهمنى الاسم كثيراً ... سأذكر عائشة وأفضالك عليها وعنايتك بها .

وإذا بالخادم دخل يدعو مولاه إلى الغـذاء وأرادت العجوز أن تطيل الحديث معـه ، ولكن لما رأتـه قلقاً مضطرباً قالت لهُ :

– أفندم قد انتـقلنا الآن إلى قـرية بايكوس لا يعرف مـقـرّنا إلا اللّـه أمـام جـامع (اينكيار اسكه منى) فإذا رأيت من الصـواب الرحيل والابتعـاد إلـى مدينـة أخرى فـأنا رهينـة الإشارة ، فأية مدينة تراها بمعزل عن شكّ السلطانة وانتقامها .

– أرمـينـيا أفـضـل الولايات لدىَّ من هـذا القـبـيل ؛ فـهى بعـيـدة الشـُّقَّة كثـيـرة المشَـقَّة عسرة الاتصـال ، فإذا أقمتِ فى قرية بجوار أرضـروم مثلاً كنتِ فى مـأْمن من كل غـدرٍ وخيانة .

– الأمر أمرك مولاى فسأرحل من غـدٍ .

ثم انحنت مسلمة ، وعادت على أعقابها إلى قريتها تتهيأُ للسفر .

وقام الباشـا إلى مائدة الطعام فجاء خادم بصدر فضى كبيـر ووضـعـهُ على «اسكملة» منقوشة أحسن نقش ، وجاء خادم آخر بطست بهىّ المنظر وصابونة عطرية ،

فغسل الباشا يديه ونشفهما وجلس أمام الصدر ، وإذا برئيس الخصيان قد دخل وعليه أمارات الاضطراب ، فسألهُ الباشا : ألا تعلم سبب سفر زوجتي الهانم ؟

– تريد لا شك أن تقول سموّ السلطانة ..؟ قد دعتها والدتها للذهاب إلى السراي الهمايوني ؛ فلم ترَ وجوبًا لإعلامك ، ولم تأذن لي بأخبارك بالسبب .

– إذًا تعرف السبب وتريد إخفاءهُ عني ؟

– نعم على أسفٍ مني .

فكاد الباشا يتميز غيظًا لهذا الجواب المهين ، وقال : حتى الخصيان صاروا يحتقرونني فصمت ، ثم انتهره قائلاً : جئني بالطعام حالاً .

فخرج الخصي، وعاد حاملاً صحفة كبيرة مغطاة بقبة فضية منقوشة نقشًا بديعًا فوضعها الخصي على الصدر أمام الباشا ، وقال : هذه الصحفة تخبر دولتك عن سبب سفر سموّها .. ثم ابتعد ولم يرفع الغطاء الفضي اتباعًا للعادة ، فحملق الباشا فيه وكاد لا يصدق أذنيه ، ثم مدّ يديه وهي ترتجف حنقًا ورفع الغطاء بحدة ، ثم طرحه وصاح مذعورًا صيحة دوت لها جوانب السراي وتراكض من أجلها جميع الخدم والخصيان ، وقد جمد الدم في عروقهم لما وجدوا رأس «إقبال» غائصًا بدمها الطري موضوعًا في تلك الصحفة الفضية وعينيها النجلاوين مفتوحتين قليلاً وهي باسمة الفم دلالةً على أن رأسها قد حُزّ غيلة وشعرها الطويل يكلل ذلك الوجه الجميل . ولبث الباشا يصرخ ويصيح واغوثاه فلا من سميع ولا من مغيث ، وأخيرًا تقدم إليه أحمد العبد ورفعه من منكبيه وأدخلهُ إلى غرفة ثانية ، وهناك أجهش الباشا بالبكاءِ والنحيب متمثلاً صورة تلك الغادة الهيفاء وهو يقول :

– واحسرتاه عليكِ يا إقبال ... مسكينة أنتِ ... ذهبتِ غيلةً وظلمًا ، ثم فتح ذراعيهِ إلى السماء ، وقال : أسألك اللهمَّ أن تنجي طفلتها من الهلاك ... أنت القدير على كل شيء ...

(٤)

بعد مضى ١٦ سنة

وحدث بعد ذلك العهد ، أى بعد انقضاء ١٦ سنة ، أمور كثيرة كانت الأحوال قد تبدلت فيها تبدلاً كليًا ، فكان السلطان عبد المجيد قد انتقل إلى رحمة ربه منذ ست سنوات . وجاء أخوهُ ولى العهد عبد العزيز أفندى ، فحقق آمال العثمانيين به . وكان هذا السلطان كل أيام ولاية عهده حتى يوم تسنم عرش أجداده منقطعًا عن الأمور السياسية معتزلاً الأشغال العمومية مقيمًا فى مزرعة (جفتلك) بجوار قرية بايكوس عائشًا عيشة الفلاحين البسيطة مصوبًا عنايته إلى الفلاحة والزراعة ، فأحبَّه الجميع لحُسن أخلاقه وأحوال معيشته .

وبينما كانت السراى السلطانية الهمايونية مكتظة بالجوارى الحسان والسرارى الشركسيات المجلوبة من جميع أطراف المملكة رغمًا عن عجز السلطان عبد المجيد ومرضه ، كان ولى العهد عبد العزيز أفندى فى مقتبل الشباب وعنفوان العمر مكتفيًا بسرِّية واحدة شركسية الأصل بديعة الجمال اختارها قرينة لنفسه ، فلم تعرف لها ضُره ، وبينما كان السلطان عبد المجيد يرقد إلى الظهر ولا يقابل وزراءَه فى الشهر مرة ، كان عبد العزيز ينهض مع الشمس لمراقبة مزرعته ، وقد جاء بمهندس زراعى بارع من سويسرا ، وجلب منها ثيرانًا كبيرة وتقاوى جيدة من جميع الحبوب حتى صار يُضرب المثل بجودة ذلك الحقل ، وصار أنموذجًا فى البلاد العثمانية ، وتعاظم ميل الناس إليه ، وغدا مدحه أنشودة كل شفة ولسان .

ولمَّا تسنم عبد العزيز عرش آل عثمان طفحت قلوب العثمانيين فرحًا وسرورًا وتَفَاءلُوا به خيرًا . وجاءَت السنون الأولى من ملكه محققة للآمال مصدقة لذلك التفاؤُل مبشرة بحسن مستقبل الأيام ونهضة الدولة من حضيض الانحطاط .

وكانت فاتحة أعماله أن أخذ يرأس مجلس الوزراء كل مرة بنفسه فى السر عسكرية فيقضى ليلهُ ساهراً معهم على النظر فى شؤون المملكة الدقيقة مهتمًا براحة رعاياهُ الأمر الذى لم يسبقه إليه أحد من أسلافه .

وكانت العادة قد جرت فى السراى كما لا يخفى أن تقدم والدة السلطان كل عام فى أول شهر رمضان سرّية إلى جلالة ابنها ، فرغب السلطان عبد العزيز إلغاء تلك العادة وإبدالها بتقديم جارية إلى امرأته السلطانة ، ثم صوّب اعتناءَه إلى افتتاح المدارس المجانية لجميع الملل والنِّحَل بقطع النظر عن الأديان والأجناس ، وساعد كثيراً على انتشار العلوم والمعارف من ماله الخاص وشاد المستشفيات الطبيّة والجمعيات الخيرية وغيرها من الأعمال المفيدة .

وخصهُ اللّـه بمعرفة قدر الرجال فانتقى من بين وزرائه اثنين هيهات أن يأتى الزمان بمثلهما امتازا فى دولة آل عثمان بالذكاء ودقة الفهم وشدة الوطنية والبراعة فى السياسة ، أعنى بهما عالى باشا وفؤاد باشا اللذين شهدت لهما رجال الغرب بالسبق والفضل فساعدا السلطان كثيراً على إنهاض المملكة .

وكانت الملابس التركية باقية إلى ذاك العهد على زيها القديم ، فأبدلها السلطان بالزىّ الأوروبى الحديث بعد أن نقّحهُ كما يليق إلاّ النساء ، فقد بقينَ محافظاتٍ على «اليمشق والفراجية» ، وإنما خفّفن كثيراً من كثافة المنديل ، فصار شفّافًا يزيد الوجه حسنًا وجمالاً . واقتنى الوزراءُ والكبراءُ العربات الأوروبية ، وجاءُوا من عواصم أوروبا بالرياش الفاخرة والأمتعة الثمينة ، وحدث بجملة القول فى ذلك العهد ثورة تقليدية عظيمة للمعيشة الأوروبية ، الأمر الذى سرَّ كثيرين ممن كانوا قد تلقوا العلوم واللغات الأوروبية، وكانوا من دعاة الحرية والمدنية . وقد بلغ الفرح والسرور منهم حدَّهُ لما تحققوا أن السلطان قد عزم على نسخ العادة القديمة وهى عادة التقيد ضمن حدود ملكهِ ، وأنه عازم على تفقد البلاد المصرية أولاً ترويحًا للنفس ، ثم على زيارة العواصم الأوروبية متفرّجًا ومستكشفًا سرّ التقدم الأوروبى ومستطلعًا أسباب رقى الشعوب ، فخيل لهم حينئذٍ أن تركيا قد بلغت أوج التمدّن والفلاح ، ووهموا أنهُ سيعود من

السياحة فى تلك البلدان منبع الثروة والفنون حاملاً من المدنية لآلئ يقلد بها جيد عرشه وناشراً أعلام الرقى والحضارة فى كافة أرجاء مملكته المترامية الأطراف ، وقد استصحب السلطان معهُ فى تلك الرحلة وزير خارجيته فؤاد باشا المشهور وولدىّ أخيه مراد أفندى ولىّ العهد وشقيقه عبد الحميد (السلطان المخلوع) ، وسرَّ الشعب من ذلك وعدُّوه برهانًا جديدًا على دقة أفكار السلطان وسموّ مبادئه ، حيث قد جرت العادة أن يقصى السلطان أولياءَ العهد فى قصور بعيدة يملؤها من النساء والسرارى الحسان بعيدين عن جميع الناس جاهلين أحوال المملكة التى ستلقى مقاليدها إليهم ، فكان استصحاب عبد العزيز لولدىّ أخيه دليلاً على أنهُ يريد إفادتهما من مدنية أوروبا كى يحذوا حذوهُ بترقية المملكة العثمانية فى معارج التقدم والفلاح من بعده ، ولذا كان يوم سفره إلى باريس يومًا حافلاً مشهودًا .

وقد أناب عنهُ فى إدارة شؤون المملكة الصدر الأعظم عالى باشا ، وأطلق لهُ حرية العمل فى تدبيرها أثناء غيابه كما ترتئى حكمتهُ ، وكان مركز الدولة يومئذٍ حرجًا ؛ إذ ظهر فُرقة من المشايخ الذين أعماهم التعصب ، وانضمَّ إليهم المعزولون من رجال السلطان عبد المجيد ، فألفوا حزبًا قويًا لمعاكسة الحزب الجديد الذى سرَّ من هذه الحركة المدنية الجديدة ، ومن اندفاع السلطان إليها، وهذا الحزب هو الذى عُرف باسم (تركيا الفتاة) ، وقد خال للجميع يومئذٍ أن الظفر سيبقى لهذا الحزب حزب الإصلاح لو لم تمدّ النساءُ أيديهنَّ الضعيفة القوية آخذًا بناصر الحزب القديم الذى كان مبدؤهُ وشعارهُ « بقاء القديم على قدَمه » ، وللنساء فى تركيا – كما فى جميع أنحاء المعمور – نفوذ شديد ، إلاَّ أنهنَّ فى الشرق وراء الحجاب لا يمكن الوصول إليهنَّ ، ولكن قد أخطأ من قال إن لا نفوذ للنساء فى الشرق .

ولما تقرَّرَ سفر السلطان فى جلسة الوزراء رسميًا قدَّم بعض كبار المشايخ استعفاءاتهم ، فقبلها السلطان حالاً ، فاتخذ الحزب الدينى ذلك إهانة لهم ، وأما العظماءُ وغيرهم من نجباءِ الأمة فقد سرُّوا من عزم السلطان وعدُّوه أمرًا سياسيًا مهما ، ولكن

المشايخ كانوا بالعكس ، فثاروا وحاولوا إحباط ذلك المسعى ، فأقنعوا السلطانة والدتهُ أن مصير ابنها إلى الهلاك إذا ظلَّ صاغيًا إلى حزب «تركيا الفتاة» .

وحاولت والدتهُ إقناعهُ بالعدول فذهبت أتعابها أدراج الرياح ، وإنما وعدها السلطان وعدًا شافيًا ألاَّ يطيل تغيبهُ عن عاصمته أكثر من شهر .

* * *

ففى اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) لعام ١٢٨٤ للهجرة ورد نبأ برقى من فارنا إلى فخامة الصدر الأعظم مبشرًا بقدوم جلالة السلطان على يخته صباح غدٍ عائدًا من رحلته الأوروبية .

ولم ينشر هذا النبأ فى أنحاء الآستانة حتى هبَّ سكانها على اختلاف أجناسهم وأديانهم يستعدون للزينة والاحتفال برجوع مليكهم المحبوب . ولما نشر ضوء الصباح فى الأفق سرادقه ركب الوزراءُ والعلماءُ والكبراءُ والقوَّاد بواخر الشركة الخيرية ، وساروا إلى لقاء جلالة السلطان عند فم البحر الأسود . وركبت والدة جلالته والسلطانة قرينتهُ يختًا ملوكيًا مصحوبة بجميع الأميرات والسرارى لاستقبال جلالته أيضًا .

وكانت شمس تموز لامعة الضياء والجوُّ صافيًا والهواءُ عليلاً ، فلم تطلّ الباخرة المقلة جلالتهُ حتى بدأت حصون الآستانة ومعاقلها فى جميع أطرافها بإطلاق المدافع تبشيرًا بقدوم البادشاه ، وكان الهتاف «بادشاهم جوق يشا» (فليعش سلطاننا كثيرًا) يدوى بين شاطئ القارتين آسيا وأوروبا ، ويعجز القلم عن وصف عظمة ذلك الاحتفال وبهائه ، فإنهُ كان مشهدًا بالغًا حدَّ الأبهة والجلال أثَّر بجلالة السلطان كثيرًا ؛ إذ استدلَّ منهُ على تعلق الشعب به وآماله فيه .

ووقف يخت السلطان قليلاً ريثما صعد إليه المستقبلون ، ثم أكمل مسيرهُ بعظمةٍ وبهاءٍ يختال فى مشيه كأنهُ عالمٌ بعظمة من يقلُّ ويتبعهُ عشرون باخرة ، وبعد أن

استقبل السلطان حرمهُ المصون عاد إلى ظهر المركب ؛ حيث كان عالى باشا بانتظار جلالتهِ وكلٌّ منهما متشوّق لرؤية الآخر هذا للسؤال عن أحوال مملكته ، وذاك لمعرفة التأثير الذى كان لتلك الرحلة فى أفكار مولاه ، فبعد أن سألهُ السلطان قليلاً عن أحوال المملكة عموماً تجاسر عالى باشا فقال لهُ :

– عسى أن يكون قد سُرَّ مولاى من هذه الرحلة .

– نعم سررتُ جداً إنما أشكر اللّه تعالى أنى لست بمليكٍ أوروبى تابعًا لديانةٍ مخالفة تماماً لديانتنا .

– هل أتجاسر على سؤال مولاى أى شىءٍ أثر فى جلالتهِ من أخلاق الأوروبيين وعوائدهم ، وأىّ شىءٍ أعجبهُ فى المدن التى شرّفها بسياحتهِ ؟

– لا مشاحة فى أن المدن الأوروبية جميلة المبانى ، وإنما مراكزها لا تساعدها على الحسن كمنظر الآستانة مثلاً فضلاً عن أن الإنسان يشعر فيها للحال أن تلك الحركة الشديدة هى من أجل السعى وراء المال ، وهى الغاية الوحيدة التى تطمح إليها أنظار الأوروبيين ... أما النساءُ فحدِّث عنهنَّ ولا حرج ، يخرجن إلى المراقص متلعات الأعناق مكشوفات الأكتاف مفتوحات الصدور مشدودات الحصور يلففنَ أذرعهنَّ بقحة غريبة بأذرع الرجال على مرأى من أزواجهنَّ الذين ينظرون إليهنَّ بدون أقلّ غيرة أو اكتراث .

– نعم قد أصبت مولاى ، للتمدّن الأوروبى عادات لا تنطبق على عاداتنا ومخالفة للدِّين المحمدى الشريف ، ولكن رغماً من تلك الحرية الظاهرة فإنهنَّ على الغالب أمهات شقيقات وزوجات محصنات والتربية تساعدهنَّ كثيراً على هذا .

– ولكن ما هذه المدنية إذا كان الفقر والجوع يميت فى مدينة كعاصمة لندره مثلاً ألوفاً من الخلق فى العام ... فهل قرأت إحصاءات الجرائم والمسجونين فى تلك البلاد الصناعية ؟

- نعم قرأتها ، وإنما يجازون فى أوروبا جميع الجرائم بلا استثناء ، أما فى الآستانة فالعدالة غير تامة ، فإن المجرم ينجو كثيراً من العقاب .

- ولكنه لا ينجو من عقاب اللّه .

- أرى أن جلالتك لم تُسرّ كثيراً من رحلتك الأوروبية .

- بلى سُررت خصوصًا لإقدامى عليها ، لكنى لا أخفى عليك أنى كنت أستعد للرجوع إلى الآستانة ، فإن تلك العيشة المملوءة من الحركة الدائمة لا تروق لى ؛ لأن الملك نفسهُ هناك كتلميذ مدرسة ليس لهُ ساعة فراغ ، فهو عبد الشعب مع أن الشعوب خلقت لتكون عبيدنا .

فالتفت عالى باشا إلى من حولهُ خوفًا من أن يكون قد سمع أحد ذلك الكلام من فم السلطان الذى أتمَّ كلامهُ فقال : إن الشعوب الأوروبية كثيرة الاهتمام بالأمور التافهة كالفنون والصناعة والزراعة والتجارة والسياسة ، ويغفلون عن أهمّ شىءٍ فى هذه الدنيا ألا وهو الحرص على السلامة .

فتنفس عالى باشا الصعداءَ لهذا الكلام ، وعرف أن السلطان لم ينظر إلا لحال الضعف فى الأوروبيين ، وأنهُ لم يستفد شيئًا جليلاً من رحلته هذه فقال :

- ولكن لا بد قد أعجبتك المتاحف والمشاهد ، وخصوصًا لتضافر الأفراد على رفع منار بلادهم .

- لا ، وإنما أشدُّ شىءٍ أثر بى قباحة وجوه الأميرات الملوكيات ، فلم أرَ فيهنَّ امرأة جميلة إلاَّ الإمبراطورة أوجينى والإمبراطورة اليصابات ، مع أنى أرى أن الملك إذا تزوَّج يجب أن يختار أجمل امرأة فى مملكتهِ ، أما هم فبالعكس يكتفى الواحد منهم بأن تكون المرأة من عائلة ملوكية ولا يهمهُ قبحها أو جمالها مع أن هذا هو الحمق بعينه .

ومرّ اليخت السلطانى أمام سراى (أميرجيان) الخاصة بإسماعيل باشا خديوى مصر ، فصوَّب جلالتهُ منظاره إليها ، واغتنم عالى باشا تلك الفرصة فأرسَل نظره

باحثًا عن فؤاد باشا فوجدهُ يتحدث مع مراد أفندى ولىّ العهد ، فقال السلطان ساخرًا :

– حديقة إسماعيل باشا جميلة ، فهى على الطراز الأوروبى ، ويريد أن يتقلدنا .

– كلا مولاى هو ولوع بتقليد الأوروبيين .

– تريد أن تقول المسيحيين .

– لا ، ولكن لا تنكر جلالتك على إسماعيل باشا الذكاء .

– هذه كل بضاعته .

– هى كافية مولاى .

– أتعرف أنى لما زرت مصر وجدت لباس جنوده أحسن من لباس جنودى ؟

– ليس الجندى بلباسهِ بل بقوّادهِ .

– تعال غداً بعد السلاملك لأطلعك على مشروع الإصلاح الذى وضعته .

– الأمر أمرك أطال اللّه عمرك .

– اصحب معك فؤاد .

– هذا جل متمناى .

وجاء أحد الخصيان فعرض على جلالته أن والدته بانتظاره ، فقام السلطان عاجلاً ، وبقى عالى باشا وحده على ظهر الباخرة وقد غلب عليه الأسف واليأس ؛ لأن أحوال كريت كانت على أهبة الثورة والعصيان ، فلما رأى فؤاد باشا الصدر الأعظم وحده تقدم إليه لمصافحته ، فتبادلا التحية ، ثم سأله بلهفة : كيف أحوال كريت ؟

– تلك مسألة كنت أحب سماعها من السلطان .

فتقدم إليه فؤاد وقبض على يده ، وهمس فى أذنه قائلا : تريد أن تقول السلطنة .. الويل يا عالى لتركيا يوم نسقط .

– إذًا أنت مقتنع بأن السلطان عبد العزيز كأسلافه .

– نعم لا يزيد ولا ينقص عنهم بشىء .

– وهل سمعت حكمه على أوروبا ؟

– سمعت أكثر من ذلك ، فقد قال لى إنه أكثر مدنية من الفرنسيين والإنجليز والبروسيانيين ، وقال أرى نفسى فى غنى عنهم وعن مدنيتهم ، ولم يعجبنى فى فرنسا شىء ، ثم رفس الأرض برجله ، وقال : أقسم باللّه العلىّ العظيم لا أكون سلطانًا إذا كنت لا أجد امرأة شبيهة بالإمبراطورة أوجينى ، وإذا كنت لا أشيِّد فى إنجلترا نفسها أسطولاً أمنع من أسطولهم .

– وهل هذه كانت نتيجة رحلته ؟

– نعم واحسرتاهُ على تركيا ، وقد بدأتُ أقتنع بأن لا بد من ظهور نجم جديد فى أفق السياسة يستلفت إليه أنظار تركيا الفتاة .

– وأىٌّ هو ؟

فالتفت فؤاد إلى مؤخر الباخرة حيث كان يوجد حلقة من كبار رجال الدولة ووزرائها ، وقال انظر إلى أبسطهم هيئة وأكثرهم بشرًا .

– مَنْ أمراد أفندى ؟

– نعم هو بعينهِ ، وأتنبأُ لك أنه سيكون سبب سقوط السلطان عبد العزيز .

– تريد أن تقول سبب وفاتهِ ؛ إذ لا تسقط السلاطين إلاَّ بوفاتها .

وحينئذٍ سمعا صوتًا من ورائهما يقول : تتغير العادات بتغيُّر السنين والأيام ، فالتفتا إلى ما ورائهما مذعورين خوفًا من أن يكون قد سمع حديثهما أحد ، وإذا بهما

رأيا شيخًا مهابًا بشوشًا قد تقدم إلى عالى باشا ، ومدَّ إليه يدهُ وقال : صافحنى بالأكف كى أقول إنى جئت بعادة جديدة من جيراننا . وكان ذلك القادم شيخ السلطان خير اللّه أفندى ، وقد اشتهر بحدَّة الذكاءِ وحريَّة الفكر وحب الإصلاح والمدنية .

فقابلهُ عالى باشا بمزيد الترحاب وهنأهُ بسلامة الوصول ، ثم سأله قائلا : ماذا تريد بعبارتك : تتغير العادات بتغير الأيام ؟

– تلك فاتحة عملى بمصافحتى إياك بالأكف .

فقال له فؤاد : وهل تعلق كبير أمر على تلك المصافحة ؟

– نعم ؛ لأنى نسخت بها عادة ثلاثين سنة ، وهذه المصافحة الأوروبية هى العربون الذى يجب أن يكون بين تركيا والدول المتحابة ، وهكذا برهنت لكما أنى من رأيكما بوجوب الاتفاق من أجل سلامة المملكة ونجاحها : إذًا إن العادات تتغير بتغير السنين والأيام ، فأجابه فؤاد :

– لا تتغير لسوءِ الحظ إلاَّ السنون .

– لا شىء يرضيك باشا أفندى حضرتلرى .

– لا غرابة فقد صرت كهلاً ...

ثم صعد السلطان إلى ظهر يخته يتبعهُ أركانُ حربه وكبار حاشيته ، وكان الربان قد أوقف اليخت أمام سراى طلمه بغجه ، وانحدر السلطان منهُ إلى زورقه المذهَّب البديع حتى أسفل سلم السراى ، وكان العلماءُ والوزراءُ والكبراءُ قد احتشدوا من مدخل القصر حتى القاعة الكبرى لتقديم واجبات التهنئة لجلالة السلطان بالعود المجيد من تلك الرحلة الأوروبية الجديدة فى تاريخ آل عثمان .

(٥)

بطل المستقبل

بينما كان السلطان عبد العزيز يستقبل وفود المهنئين أرجو القارئ الكريم أن يتبع فارسين قد أعمل كلٌّ منهما المهماز فى شاكلة جواده وهما ينهبان الأرض نهبًا مسرعين نحو محلة «أورطه كى» أحدهما شابٌّ فى الثانية والعشرين من عمره أسمر اللون خفيف العارضين اسمهُ «صلاح الدين بك» من ياوران جلالة السلطان ونجل أحد قوَّاد الدولة المتقاعدين ، والثانى شاب يافع شركسى الأصل اسمهُ «حسن» لا يُعرف له أصل ولا نسب ولا أهل إلاَّ شقيقة فتاة ربتها والدة السلطان فى حرمها ، وقد ارتبط هذا مع صلاح الدين بك بمودَّة شديدة ، وكان والدهُ مقيمًا على هضبة بالقرب من قرية «أورطه كى» فى بيت بسيط تحيط به حديقة فيها كثير من أشجار الفاكهة المختلفة .

فلما وصلا البيت قفز صلاح الدين عن جواده كالغزال وأول سؤال وجههُ إلى خادمهِ كان عن صحة والده الشيخ الجليل ، ثم سار إلى السلاملك يصحبه صديقهُ حسن ، فضمهُ والده حميد باشا إلى صدرهِ وعانقهُ شديداً ثم أمره بالدخول إلى الحرم لتقبيل يدىّ والدتهِ نعمت هانم ، وكانت جالسة مع السرارى تنتقى زهر الورد لطبخه بالسكر ، وكانت منذ سمعت إطلاق المدافع تبشيراً بقدوم السلطان تنتظر وصول ابنها بذاهب الصبر ، فكانت ترسل كل هنيهةٍ إحدى جواريها تتفقد وصولهُ . وكان صلاح الدين هذا وحيداً لوالديهِ وموضوع حبهما قد تلقى علومهُ فى كلية فينا الكبرى ، وانتقل منها إلى فرنسا حيث أكمل دروسهُ الحربية فى مدرسة «سان سير» ، فأخذ عن الفرنسيين ما اشتهر عنهم من الظرف واللطف ورقة المعاشرة ، ولم تطمح أنظاره إلاَّ لخدمة وطنهِ وأمتهِ ، فانخرط فى سلك دعاة الحريَّة والمصلحين وكان ورعًا من غير تعصب جرىء القلب بطلاً مقدامًا ، وقد سرَّ جداً لما عرف أن جلالة السلطان

قد انتقاه ليكون من ياورانه ورفيقًا لهُ فى رحلته الأوروبية ، وقد علَّق على هذه الرحلة كبير أمل من التأثير على أفكار السلطان ليدفعه إلى الصعود فى معراج التمدن والحريَّة . فلما دخل الحرَم أخذ يدى والدته يقبلهما بشوق ، وقامت الجوارى والسرارى فرحات مسرورات يقبلن طرف ثوبه وأكثرهنَّ كنَّ يعددن لرجوعه الأيام والساعات ، وقد أملن جميعًا أنهنَّ يحظين بالتفات منهُ ، أما هو فاستقبلهنَّ بلطفٍ ، ثم تحوَّل عنهنَّ وانطرح على الديوان بالقرب من والدته يقصُّ عليها أخبار رحلة السلطان .

ولبث ساعتين يروى ظمأ اشتياقه ، وإذا بجاريةٍ دخلت وأبلغته أن والدهُ الباشا قد اضطرَّ للخروج من أجل ردِّ بعض زيارات ، وأن صديقهُ حسن باقٍ وحده فى السلاملك .

فهبَّ صلاح الدين حالاً إليه يعتذر عن قصوره ، فوجدهُ واقفًا بالقرب من النافذة ينقر زجاجها بأصابعهِ تسليةً وإضاعةً للوقت ، فتقدَّم إليه صلاح الدين وقال :

– أرجوك العذر لقلة أدبى ... ولكن من غاب عن والدته شهرًا كان الشهر عنده دهرًا .

– أصبت ... ثم تنهد وقال طوبى لمن له عائلة ... أما أنا فإنى يتيم وحيد أشعر بثقلى أين ذهبتُ وكيف اتجهتُ ؟

– ما هذا القول يا حسن ...؟ أتجهل محبة أصدقائك واعتبارهم لك ؟ والأصدقاءُ الصادقون هم كالأهل ، بل خير منهم ؛ إذ الإنسان له فيهم خيار الانتقاءِ .

إذا كان يحق للإنسان انتقاء أخٍ فأنت أخى الوحيد .

– عزيز علىَّ يا حسن ألاَّ يكون عندى شقيقة تثبت لك صدق قولك ، ولكن أنت تعلم أنى وحيد لوالدىَّ .

– وأما أنا فلى شقيقة يا صلاح الدين أحبها حبًا شديدًا اجتزت وإياها منذ خمس سنوات بلادنا الشركسية يوم قادونا كالأغنام للبيع فى الآستانة فقدَّر النصيب أن اشترت والدة السلطان شقيقتى – مهرى – ووضعتها فى حرمها .. وهكذا حُرِمتُ

من مشاهدتها كل حين ولا يسعدني الحظ بذلك إلا متى انتقل الحرم السلطانى إلى المصيف .

– ولكن سمعت اليوم من رئيس الخصيان أن جميع السرارى قد ذهبنَ للاستحمام فى البحر عند قصر «بكلربك» الذى هو قبالتنا .

– فأبرقت أسرّة حسن فرحًا، وقال أحقيقى ما تقول ؟ وكيف يمكننا تحقيق ذلك ؟

– أمرٌ سهل لا يكلفنا كبير عناء ... تعال نكترى زورقًا ونذهب لتحقيق ذلك فنسأل رئيس الخصيان إذا كانت شقيقتك بين السرارى أو إذا كانت بقيت فى السراى الهمايونى وكيفما كان الحال نكون قد قضينا نزهة لطيفة .

– ما أكرم أخلاقك وألطف طباعك ... هيا بنا .

– هذا من واجباتى ؛ فقد تركتك وحدك منذ ساعتين وأنا أتنعم بلذة مشاهدة والدتى فوجب علىّ الآن التعويض ، واكتريا زورقًا للحال واجتازا البوسفور ، فوصلا فى أثناء عشر دقائق إلى شاطئ آسيا إلى بيكلربك ، وهى القرية التى بنى السلطان فيها قصراً على شاطئ البحر فى غاية من الظرف ، فصعد الصديقان إلى باب السراى ، فلما رأى الخدم والحشم صلاح الدين عرفوا من ملابسه أنهُ من ياوران جلالة السلطان فسأل حسن أحد الخصيان عن مهرى هانم فأجابه أنها فى السراى ، وأنهُ يمكنهُ مشاهدتها فسر كثيراً ، ثم التفت إلى صديقه صلاح الدين وقد أخذته الحيرة بوجوده وقال :

– ما العمل ؟

– خفض عنك ، فإني سأتمشى على هذه الطريق المحاذية لحديقة السراى حتى تشماليجة ، ثم أعود إلى هذه الساحة أنتظرك فى قهوتها فلا تضيع وقتك ، واعلم أنى أكون مسروراً إذا كنت سهلت عليك هذا الاجتماع ، وسأنتظرك بسرور مهما طال اجتماعك ، ثم مدّ يده فصافحه وتبع حسن الخصى وعاد صلاح الدين وحده متجهًا نحو الطريق التى سار إليها . فلما صعد إلى أعلى الهضبة وقف أمام بستان السراى يحيط به شجر الجوز الكبير وحائط رفيع لا يُرى منه إلا رؤوس الأشجار ، فوقف يسرّح الطرف فى ذلك المشهد البديع ، وإذا به يسمع صوتًا رخيمًا مناديًا .

- مهرى هانم ... مهرى هانم ... تعالى التقطى الخوخ ..

وسمع فى الوقت نفسه هز شجرة صوت الثمار تتساقط على العشب الأخضر ، فرمى بنظره إلى الشجرة فرأى غادة تركية قد تسلقتها كالسنجاب وقد تطاير منديلها الشفاف عن رأسها ، فأبان وجهًا صبوحًا وعينين نجلاوين وشعرًا حالكًا مسترسلاً على أكتافها غدائر ، وكانت أوراق الشجرة وأغصانها الملتفة حجابها الوحيد . ويظهر أن السبب فى مناداتها لرفيقتها بصوت عالٍ كان استلفاتًا منها لنظر صلاح الدين الذى لما سمع الصوت ورأى الغادة وقف مبهوتًا ذاهلاً من جمالها الفتان ، وهى لما رأت مركزها الحرج حاولت عبثًا الاختباءَ وراء الأغصان والأوراق ، ثم سمع صوتًا من أرومة الشجرة يقول : عائشة هانم لِمَ لا تلقين الخوخ ؟

- لم يبقَ ثمرٌ فى الشجرة .

- إليك هذا الغصن المدلى على الطريق ، فقد رزح من كثرة الثمر ، فمدَّت عائشة يدها اللطيفة إلى الغصن فهزته بعنف وتساقط الخوخ على الطريق أمام صلاح الدين ، فهمَّ بالتقاطه ، وفى الحال فُتح باب صغير الحديقة ، وخرجت منه فتاة تركية مسرعة لالتقاطه أيضًا ، فلما رأت صلاح الدين أمامها صاحت مذعورة وهرولت ناكصة على أعقابها تاركة الأثمار غنيمة باردة لهُ ، واغتنمت عائشة فرصة انحناء الرجل لالتقاط الثمر فانحدرت عن الشجرة بعَجَل ، ولم يكد صلاح الدين يتم التقاط الثمر حتى مرَّ به خصى فنظر إليه نظرة المرتاب وأراد الدخول إلى البستان فوجد الباب موصداً ولم يفتح له حتى عرَّف بنفسه فقال بصوت عالٍ :

- مهرى هانم جاء أخوك حسن إلى السراى يريد مشاهدتك .

- هاأنذا ... هاأنذا حاضرة .

فابتعد صلاح الدين قليلاً احترامًا ، وإذا بالباب قد فتح ، وخرجت منه مهرى يتبعها الخصى ثم أقفل على مهل ريثما تمكن صلاح الدين من النظر إلى عائشة قليلاً ،

ووقفت هى تبسم له ابتسامة الممازحة فتظاهر هو بأنه عابر طريق ، فأخذ فى مسيره قليلاً ولكنه عوض أن ينحدر إلى القرية كما كان عزمهُ صعد إلى الأكمة ثانية ومنعًا للريبة عرَّج إلى طريق ضيقة محاذية لسياج البستان ، ولمَّا ابتعد عن الطريق العامَّة تسلَّق شجرة توت كبيرة ملتفة الأغصان فجعلها مرصداً له يترقب من خلالها الشارد والوارد فى الداخل والخارج .

* * *

والحبُّ أوَّلُ ما يكون مجانةً　　فإذا تمكن صار شغلاً شاغلا

دفعت الرغبة صلاح الدين إلى معرفة تلك الغادة الفتانة التى جذبت فؤاده من أول نظرة « وما الحبُّ إلا نظرة بعد نظرةٍ » ، وقد أحسَّ فى الحال بشعور غريب وعاطفة جديدة لم يلامسا بعد قلبه الخالى .

ولما صار فى أعلى الشجرة رأى أن عائشة ليست وحدها فى البستان ، بل يصحبها أربع من رفيقاتها السرارى وقد جلسن جميعًا أمام جدول ماءٍ نمير تحف به أشجار بديعة الائتلاف والاصطفاف مكللة بآلاف من الفاكهة المتنوعة الأصناف والنهر بفرط صفائه ورقة مائه ينمُّ عما بأسفله من رمله وحصبائه . وكلهنَّ يدخن التبغ اللذيذ ، ويأكلن أنواع الفاكهة النادرة ، ورأى فى آخر الحديقة بيتًا خشبيًا صغيراً قد أخفته الأشجار الملتفة .

فرأى صلاح الدين من مرصده أن الغادة التى جذبت قلبه واختلبت لبَّهُ كانت تقف من حين إلى آخر على طرفى قدميها ، فترمى بنظرها إلى الطريق الصاعدة أو تتطلع من خلال السياج كأنها تنتظر مرور شخص ثم تعود فتجلس مقطبة الوجه ، فعرف صلاح الدين أنه هو الشخص المنتظر ، وكان يسرُّ كلما رآها جلست عابسة الوجه مقطبة الجبين ، ثم تولتها السآمة فقامت وتركت رفيقاتها لتجمع باقة زهر ، وبدأت تتوغل فى البستان تقتطف أنواع الزهور حتى وصلت إلى أسفل الشجرة التى كان مختبئًا

فيها صلاح الدين ، فأخذ للحال أثمار الخوخ التى التقطها من الطريق ، ورمى بها أمام عائشة ، فدهشت لما رأت أن التوت قد أثمر خوخًا يتساقط على قدميها فرفعت نظرها إلى الشجرة فذعرت مبهوتة لما رأت صلاح الدين جاثمًا كالطير فى أغصان الشجرة وصاحت صوتًا يتخلله الخوف والفرح اهتزَّ له قلب صلاح الدين طربًا ، فقفز من أعلى الشجرة وصار فى أقل من لمح البصر أمام قدميها ، فصاحت به الفتاة :

– ما هذه الجسارة بك أفندى ؟ ثم أخذت منديلها ولفَّت وجهها الجميل ، ثم قالت: أَمن أجل ابتسامة تقتحم حدائق الناس وتتسلق الأشجار ...؟ ابتعد حالاً وإلا ناديت والدتى ... تأديبًا لك .

– مهلاً هانم أفندى ... إنى أعجب كيف يخرج هذا الكلام القاسى من هذا الفم الجميل ... وليس مولاتى الذنب ذنبى فإن جمالكِ الفتَّان هو الذى دفعنى إلى هذه الجسارة ، وإذا كان فى وسعك منعى من العود إلى هذا المكان فليس فى طاقتك منع قلبى من أن يهواك ، وأن يكون بكليته لكِ .

– لا أفهم ما تقول ... ولكن أرى أنك واهم ... لستُ بجارية لأرضى بمثل هذا الحب .

– أصبتِ فيما قلت ، وإنما أرجوك المعذرة ؛ لأن جمالكِ قد أضاع صوابى ، واسمحى لى أن أعرِّفك بنفسى ... إننى أُدعى صلاح الدين وحميد باشا المقيم فى «اورطه كى» والدى وشقيق مهرى هانم صديقتكِ يخبركِ عنى طويلاً إذا رغبتِ المزيد وأعلل النفس برؤيتكِ مرة أخرى .

فلم تجب الفتاة ببنت شفة ، ولكن لمح صلاح الدين أن عينيها تضحكان سرًا ... فحيَّاها التحية التركية قائلاً : أى واللّـه هانم أفندى .

– أى واللّـه .

– ثم تسلق الحاجز وقفز إلى الطريق وهو يقول : للّـه درُّها ما أفتن جمالها ، وأكملت عائشة مسيرها تقول فى نفسها للّـه درُّهُ ما أنضر شبابه وأرشق عبارته .

وعاد صلاح الدين عند ذلك إلى القهوة فوجد صديقَهُ حسنًا بانتظاره ، فلما رآه ابتسم لهُ قائلا :

– قد رأيتك شقيقتى الساعة .

– وكيف عرفتنى ؟

– كنت أريتها رسمك ؟ وقلت لها : انظرى هذا الأخ اللطيف الذى لى وقد أعجبها جمالك وشبابك .

– هذا ولا شك لطفٌ منها .

– وأنت هل رأيتها ؟

– كلاّ لم أتجاسر على رفع نظرى إليها فضلاً عن أنها كانت محجبة بيشمق كثيف .

– نعم هذه إرادة السلطانة ؟ إذ لا يخفاك أنها معاكسة للأفكار الجديدة .

– وهى أفكار السلطان أيضًا فإنه عاد من رحلته الأوروبية أكثر تعصبًا من ذى قبل وأشد استبدادًا . فلم يجب حسن على هذا الكلام ؛ لأنه كان من حزب تركيا القديم الكاره للأفكار الجديدة والإصلاحات الأوروبية .

وكان السلطان عبد العزيز يفضل سراى بيكلر بك على جميع قصوره بعد سراى «طلمه بغجه» ، فكان ينتقل إليها مدة فصل الصيف تاركًا شؤون الدولة ملقيًا مهام المملكة على عاتق الصدر الأعظم عالى باشا الذى كان صارفًا جل اهتمامه فى إخماد ثورة كريت .

وبينما كان السلطان محتجبًا فى قصره معتزلاً أشغال الدولة التى كان مصوبًا إليها أولاً جلّ اهتمامه كان هوبار باشا محاصراً سيراً بالأسطول العثمانى وفؤاد باشا يقدح زناد فكرته آناء الليل وأطراف النهار فى سبيل مرضاة سفراء الدول

فى الآستانة ، وكان مدحت باشا واليًا لولاية الطونة ، فاستدعى إلى الآستانة وقلد رئاسة شورى الدولة .

ولا يختلف اثنان فى أنه لو سلمت مقاليد الدولة فى ذلك العهد إلى هؤلاء الوزراء الثلاثة لسلمت من العطب وأمنت العثار واستغنت عن السلطان عبد العزيز الذى كان قد بدأ فيه حب الإثرة والاستبداد ، وصرَّح بأن ما أظهرهُ قبلاً من الميل إلى الحرية والإصلاحات ليس إلا سياسة منه اكتسابًا للأميال وتهدئة للأفكار الثائرة .

ففى صباح شهر سبتمبر ١٨٦٧م (الواقع فى ٤ شعبان) أمر السلطان أن يُسرج له جواد عربى يخرج عليه للنزهة ، فسار وحده بين البساتين والحدائق صعدًا يتبعه من بعيد أحد يورانه حتى وصل إلى أعلى الأكمة ، فوقف فى المكان الذى وقف فيه قبله صلاح الدين منذ شهرين يسرِّح الطرف فى ذلك المنظر الجميل ، وإذا به يسمع حديثًا همسيًا داخل البستان ، فدفعته الرغبة والريبة إلى معرفة المتحدثين ورؤيتهم ، فدخل البستان من الباب الصغير .

* * *

وكانت عائشة جالسة على العشب الأخضر متكئة على صدر رفيقة لها شركسية جميلة الوجه بهية المنظر وأمامها امرأة عجوز راقدة فى ظل شجرة .

فتنهدت الشركسية ، ثم أكملت حديثها قائلة :

– نعم إنى أحب السلطان ، ولا أتجاسر على رفع نظرى إليه ، فإذا نظرته ارتجفت أعضائى .. ثم أخذت يد رفيقتها ، وقالت لها : ضعى يدك على قلبى فتسمعى دقات اختلاجه .. ثم قالت : ما الذى جاء به إلى هنا يا ترى هذا الصباح ..؟ وهو كسولٌ لا ينهض من رقاده حتى الظهر .

– لعله عرف بمجيئك إلى هنا ، ويحتمل أن يكون قد جاء يبحث عنك .

– كفاك هزءًا وسخرية ... أنت سعيدة بحبك لألطف شاب فى تركيا فهنيئًا لك ، أما أنا فقد تطاولت فى حبى إلى ما وراءِ الآمال وبنيت قصوراً شاهقة لأوهامى .

– لا .. ألست بربة الجمال ...؟ وأنت فى حرم والدة السلطان تتسنى لك رؤية السلطان كل يوم .

– نعم ، فإنى كل يوم «أشاهد معنى حسنه فيلذ لى» ، ولكن نحن السرارى والجوارى نعد هنا بالعشرات والمئات وكلنا جميلات ، وهو مع ذلك قليل الاكتراث بنا جميعًا وخصوصًا بى ، مع أن نظرى لا يقع عليه مرة حتى أنتفض «كما انتفض العصفور بلَّلَه القطر» .

– ما أشد حبك وأعظم تعلقك مهرى ... بمثل هذا الحب تعلقت بصلاح الدين بك منذ شهرين ، واشتد بكِ الوجد والهيام إلى درجة أن دبَّت فى قلبى عقارب الغيرة ، ثم صرتِ هائمة بحب السلطان ، وسنرى إذا كان لهذا الحب دوام .

– ما الحيلة يا عزيزة ... وقد حكم علينا الدهر بهذه المعيشة ؛ فلا بدَّ أن يتعلق قلبنا بشىءٍ سواء كان أهلاً لهُ أو لم يكن ... تذكرين القصة التى قصتها فاطمة قادين على مسامعنا .. أتظنين أن تلك المسكينة أحبت ذلك الباشا السمين الغليظ الكبد الذى مات متخومًا ؟

– فأجابت عائشة : واحسرتاه ... لقد كانت ولادتى سببًا لورودها حتفها ، وهذا سيكون شؤمًا علىَّ كل أيام حياتى . ولم تتم عائشة هذا الكلام حتى صاحت مهرى هانم مذعورة ؛ لأنها لمحت عينى رجل ينظر إليهن من خلال سياج الورد كأنه يتلصص لسماع حديثهنَّ ، وانذعرت القادين من رقادها الهنى فقامت تنظر من ذا الذى تجاسر أن يرسل نظره إلى الحرم السلطانى .

* * *

وكان صلاح الدين يمرُّ كل يوم من ذلك المكان ، فيلقى من فوق السياج باقة من الزهر الجميل إلى عائشة مليكة قلبه ، وكانت العجوز جاهلة أو متجاهلة حادثة الخوخ حتى كتمتها عن الجميع ولم تخبر بها إلا رفيقتها مهرى هانم الشركسية .

أما صلاح الدين فكان قد أَباحَ بسره إلى والدته نعمت هانم وكشف لها عن لواعج غرامه . وكانت تعرف جميع عائلات الآستانة الكبيرة ، فأخذت تسعى منذ ذاك العهد وراء معرفة أصل عائشة هانم التى هام ابنها بحبها ، فقصدت جميع العائلات ، فلم يهدها أحد إلى خبرها فسارت إلى الحمامات ، وهى - كما لا يخفى فى الشرق - جرائد المدينة يقف الإنسان فيها على جميع الحوادث المحلية وغاسلاتها يعرفن جميلات البلاد أصلاً وفصلاً ، لكنها لم تستفد شيئًا ، فكلف صلاح الدين صديقه حسنًا بأن يستعلم شقيقته مهرى هانم ، فتجاهلت ولم تخبره أمرًا ، وأخيرًا عزمت والدته على أن تقصد العجوز فاطمة قادين والدة الفتاة .

فقامت ذات يوم قاصدة سراى «بيكلر بك» متخذة حجة بسيطة ، وسألت مقابلة الباش قادين ، أى رئيسة الحرم ، وكانت من أعز صديقاتها ، فاقتبلتها بمزيد الأنس والترحاب ، فكشفت لها نعمت هانم غمتها والتمست منها أن تسمح لمهرى هانم بمرافقتها إلى بيت عائشة هانم ، فأجابتها الصديقة : ابقى هنا إلى ما بعد صلاة الظهر ، حيث نتناول الطعام معًا ، وسنخرج اليوم جميعًا إلى البستان ، وهناك ربما يتسنى لك معرفة ما تريدين من مهرى أو أننا نخرج بحجة النزهة إلى كرم العنب فتذهبين إلى بيت عائشة وهى كما لا يخفاك جارتنا ، فقبلت نعمت هانم هذه الدعوة بمزيد الشكر والامتنان .

ولم يكن مدعوًا إلى تلك النزهة إلا نعمت هانم ، فخرجن إلى البستان ، وجلست السرارى والجوارى على شكل دائرة منتظمة ، ولما كانت مهرى قد امتازت عنهنَّ بمعرفة ضرب القيثارة وبالصوت الرخيم طلبن إليها جميعًا أن تطربهنَّ .

وكانت جميع السلطانات فى جهة أخرى من البستان يفرق بينهنَّ وبين السرارى فرقة من الخصيان . فلما فرغت مهرى من توقيع ألحانها صفقن لها وامتدحنها

واغتنمت نعمت هانم الفرصة فتقدمت إليها وأطنبت فى الثناء عليها ثم أخذتها بيدها ممازحة ، وساقت الحديث إلى صديقتها عائشة ، فأجابتها مهرى بكل صراحة وحرِّية ضمير على ما تريد ، لكن لم تلبث طويلاً حتى صمتت ولم تنبس ببنت شفة . فقالت لها نعمت هانم :

– لِمَ هذا الصمت يا حبيبتى ؟ وأنت تعلمين بأن ابنى هائم بحب تلك الفتاة ويريدها زوجة لهُ ، أيوجد سر غامض فى ذلك البيت ؟

– فأجابت مهرى متنهدة : نعم .

– أرجوك إذًا يجب إطلاعى عليه . نعم إن ابنى لا يهمك أمره ، ولكن لى الأمل ألاَّ تخيبى رجاء والدة ابنها هو وحيدها وفلذة كبدها ، فأستحلفك بحرمة والدتك ألاَّ تخفى عنِّى شيئًا ؛ لأن عليها تتوقف سعادة صلاح الدين وعليه تتوقف سعادتى وحياتى .

– لا أعرف لى أُمًا ، فإننا نحن الشركسيات لا نعرف لحبِّ العائلات والوالدات معنى ، وأرجوك أن لا تلحى علىَّ بالأسئلة ؛ إذ لا يمكننى الجواب .

فصمتت نعمت هانم برهة حزينة كئيبة وقد أثر فيها الكلام ، فقالت لها مهرى :

– لا غرو أن أدهشك كلامى ، ولكن متى عُلم السبب بطل العجب : إنى غائرة من عائشة .

– كيف ذلك ؟ إذًا أنت تحبين أيضًا صلاح الدين .

– لا كنت قد أحببتهُ قبلاً ، وأما الآن فقد تخلَّيت عنه لعائشة وحدها وخلفهُ فى قلبى آخر لا أبدلهُ بأحدٍ فى العالمين وروحى وحياتى فداهُ .

– أتحب عائشة يا ترى ذلك الآخر ؟

– كلاَّ هى لا تحبهُ ... وإنما قد استلفتت أنظاره ، وهذا كافٍ لإيقاد نيران غيرتى ؛ لأنها متى عرفتهُ لا تستطيع الثبات أمامهُ .

– إذًا يوجد طريقة سهلة للتخلص منها ، وهى أن يتزوَّج صلاح الدين بها فيخلو لكِ الجوُّ وحدكِ .

لا .. يجب تأجيل هذه الزيجة إلى أجل ما حبًا بصالح عائشة وصالحى .

– هذا لغزٌ مـعمى يعسر علىَّ حلهُ ... ولكن من يقدر يا ترى على معاكسة هـذا الاقتران ؟!

– أنا ...

فكادت نعمت هانم تتميز غيظًا من هذه القحة ، فصاحت بمهرى يظهر أنكِ قد نسيتِ كونكِ جارية ، فتجاسرتِ على مثل هـذا الكلام ، ثم ذهبت إلى صديقتها الباش قادين وقصَّت عليها الحديث ، وقالت لها : تحـذَّرى من هذه الفتاة .

– خففى عنك ، فإنى سأعيد إليها صوابها ... ولكن اغتنمى الآن فرصة وجودك فسيرى إلى البستان المحاذى الخاص بعائشة هانم ، واستخبرى عما تريدين منها رأسًا ... إذ لا أخالها تخفى على والدة محبها شيئًا .

فقامت نعمت هانم للحال مسرعة إلى البستان فدخلتهُ ، فلم تجد إلا جارية سوداء وبعض السيدات يتنزَّهنَ فسألتها : من هى صاحبة البستان من الخواتين ؟

– لا نعلم ، فلم نجد فيه أحداً لما دخلناهُ .

فرأت نعمت هانم بيتًا صغيراً فى آخر البستان فقصدته وقرعت الباب فوجدته موصداً فعادت بخفى حنين ، وإذا بها التقت برجلٍ طاعن فى السن يظهر عليه من ملابسه أنه أحد الخدم ، فسألها : ماذا تريدين هانم أفندى ؟

– كنت أرغب فى مقابلة عائشة هانم .

فنظر إليها الخادم نظرة المرتاب ، وقال لها :

– لعلكِ تكونين من السراى ؟

- كلاً لست إلا زائرة وأنا مقيمة فى «اورطه كى» .

- أأنت والدة صلاح الدين ؟

- نعم أنا نعمت هانم .

- بارك اللّه فيكِ ... خرجت مولاتى هانم أفندى ووالدتها هذا الصباح ولا يرجعان إلا بعد خمسة عشر يومًا .

- جُزيت خيراً .

- أرجوك أن تخبرى صلاح الدين بك بذلك .

- لا بدّ .. ولكن هل لك أن تفيدنى عن سبب هذاالتَّغَيُّب ؟

- لا أعلم .

فعادت نعمت هانم إلى السراى فوجدت الجميع فى لهوٍ وزهوٍ ورقصٍ وطرب .

وفى ذلك المساء بعينه لما جاءت الباش قادين لافتقاد السرارى فى أسرتهن وجدت سرير مهرى هانم فارغًا لم يُفرَش بعد فاستشاطت غيظًا ، وقد وهمت أن مهرى خالفت النظام ، لكن لما سألت الخصى قال لها : إن السلطان قد استدعاها .

فقلب هذا الالتفات الشاهانى حال مهرى من شىء إلى شىء ؛ إذ بعد أن كانت جارية تتزلف إلى الخادم والخصى والجارية والرئيسة أصبحت فى ليلةٍ واحدة الآمرة المطاعة يتزاحم من فى السراى للتزلف إليها ؛ لأنه إذا أسعدها الحظ فحملت يومًا تصبح حالاً من سلطانات آل عثمان ...

ولم يعد أحد يذكر عائشة هانم بشىء ، كأن سعد رفيقتها مهرى قد حجب سعدها .

(٦)

عائشة هــانم

إذا رام محبٌّ أن يقف على مقام حبيبته ومليكة فؤاده سهل عليه ذلك ؛ لأن قلبه كثيراً ما يكون هادياً له ودليلاً . فلم تنقضِ الخمسة عشر يوماً التى ضربها أحمد لنعمت هانم حتى كان صلاح الدين قد عرف مكان حبيبته ومقامها ، فقد كلفت هى خادمها أحمد هذا أن يخبر صلاح الدين بعدم استطاعتها الرجوع إلى «تشيمالجه» وبقائها فى بايكوس تمرّض والدتها ، فأخبر أحمد صلاح الدين بذلك ، ورجاه أن يبقى الخبر مخزوناً فى أعماق فؤاده ، فقال له صلاح الدين :

– أنت تعلم مقدار حبى لعائشة هانم وكفى ... ولا أطلب منك مزيداً ، وأعدك بألاَّ أطلع أحداً على مقرِّها حتى ولا والدتى .

– أى بك أفندى أرجوك عفواً إذا وجدتنى قلقاً مُلحّاً بوجوب كتمان السرّ ... إذ لو علم الأعداء المحيقون بهذه الفتاة المسكينة التى أوصانى والدها بالاعتناء بها قبل وفاته لعذرتنى .

– ولكن من الغريب أن يكون لهذه الفتاة السليمة القلب أعداء الداء وأخصام أقوياء ..

– نعم وأسفاه ... لو كنت على الأقل زوجها لحسن حظها ... إن قلبى يرتجف جزعاً كلما فكّرت بأن فاطمة هانم أصبحت عجوزاً هرمة ، وأن الموت يترصدها كل هنيهة ... فإلى من نكل أمر تلك المسكينة بعد ذلك يا ترى ؟

– خفف عنك ستكون إن شاء اللّه عائشة قرينة لى إذا رضيتنى بعلاً لها . أدفع عنها الأخصام ، وأحميها من طوارق الحدثان وغدر الأعداء .

– وأى أعداء ... إن أسماءَهم لتحرق الشفاه .

– ولكن لسنا والحمد للّه في عهد السلطان محمود ... فالعدالة مرعية في تركيا الآن .

– لا عدالة إلاَّ في السماءِ مولاى .

– هذه أفكار قديمة العهد .

– أى بك أفندى أنت شاب ترى كل شيءٍ حسنًا زاهيًا ، وقد رأيت السراى الهمايونى مفروشًا بالدمقس الأوروبى فوهمت . لكن البكاء والصراخ ملآ جوانب القصر فلا يصل إلينا شيء من الفظائع التى تجرى تحت طيّ الأطالس .

– تلك خرافات قديمة ، والذى تربى نظيرى فى العواصم الأوروبية لا يعيرها كل سماعه .

– هذا هو السبب يا مولاى فى جسارتى على هذا الكلام ؛ لأنى قضيت عمرى بين أحذية الباشاوات وفى زوايا السرايات وأقسم لك إنَّا لا نزال كما كنا فى أيام عثمان الفاتح .

فأثر فى صلاح الدين هذا الكلام الخارج من فم خادم ساذج عرك الدهر طويلاً وذاق حلوهُ ومرهُ فقال لهُ :

– أتظن إذًا أن خطرًا يتهدَّد عزيزتى الهانم ؟

– نعم يا مولاى عسى أن يشفق اللّه على تلك المسكينة .

وأراد أن يكمل حديثه ، فرأى أنه قد تجاوز الحدّ ، فقال : لا أريد تكديرك ، فكفى ما صرّحت لك به ، ولا تنسَ أن فاطمة هانم ترغب فى مقابلتك ... ففى أى يوم تريد ؟

– هذا المساء بعد صلاة الغروب .

– إذًا أنتظرك عند موقف البواخر .

ثم ودَّعه وانصرف ، وانقلب صلاح الدين إلى بيته يفكر فيما يكون ذلك الخطر الذى يتهدَّد حبيبتهُ ومليكة فؤاده .

وفى العشاء وصل صلاح الدين فى الموعد المضروب متنكراً وقد ارتدى ثوبًا رمادى اللون ، فكان أحمد فى انتظاره ، فسار أمامه فى طرق بايكوس الضيقة حتى وصل إلى أمام بيت خشبى صغير ، فتناول أحمد مفتاحًا كبيرًا ودعا الضابط إلى السلاملك .

وكان ذلك البيت الصغير ملكًا لفاطمة هانم تمكنت من مشتراه من فضلات نِعَم المرحوم محمد باشا داماد وعطاياه ، وفى هذا البيت أخفت عائشة منذ ست عشرة سنة خوفًا عليها من انتقام السلطانة عليَّة هانم . وكان الحزن والفرح يتلاعبان بقلب صلاح الدين تارةً يتغلب عليه الحزن خشية من مفاجأة موانع قوية تحول دون مرامه وطوراً يسود على قلبه الفرح ، لأنه أصبح ومليكة فؤاده تحت سقف واحد، وإذا بفاطمة هانم دعته إلى دخول غرفتها فى الحرَم ، وكانت قد تربَّعت على ديوان من الحرير الدمشقى وتقنعت بمنديل ناصع البياض ، ولما رأت صلاح الدين يتردد فى الدخول صاحت به : تفضل بك أفندى أنا عجوز لا خوف علىَّ من محادثة الرجال ، وإذا كنت قد استدعيتك لمفاوضتك خلافًا للعادة التركية التى تقضى على الأمّ ألاَّ تتظاهر بالاهتمام فى تزويج ابنتها فذلك الأمر مهم ، وإذا كنت فضَّلت مقابلتك على مقابلة والدتك التى تنازلت إلى زيارتى ، فهو لأن الوقت ضيق والأمر مستعجل حرج ... إنى شاعرة بك أفندى بدنو أجلى ، ثم التفتت إلى الباب لترى إذا كان وراءه مُنصت . وجلس صلاح الدين على طرف الديوان باحترام خافض النظر يتساءل إذا كانت تلك العجوز هى والدة مليكة فؤاده حقيقة أو أن سرًا يرفرف فوقها ، فقال لها صلاح :

– قد أحسنت بما فعلت من حيث استدعائى ، واللّه أسأل أن يطيل عمرك ويحفظك طويلاً لابنتكِ ، أما أنا فإنى مستعد للإقدام على كل شىءٍ برهانًا على اعتبارى لكِ وامتثالى لأوامرك ، وخصوصًا لحبى الشديد لعائشة هانم .

– إذًا أنت تحب الابنة بإخلاص تام .

– نعم أحبها حبًا شديداً من كل جوارحى .

– وهل ترى من نفسك قوة لاقتحام الأخطار المحدقة بها توصلاً إلى الاقتران .

– نعم لا شيء يثنيني عن حبها .

– إذاً حبك متين وليس حباً زائلاً يتكسّر في أول ساحل .

– أجل هانم أفندي حبي أصدق مما تظنين وأمتن ما ضرب في الحب عهود ، فهو ولئن نشأ عن نظرة لا يقلُّ شيئًا عما لو كان تولد عن أيام وسنين ، فكأن الشاعر أنشد لسان حالي حين قال :

وما هي إلاَّ لحظةٌ بعد لحظةٍ إذا نزلت في قلبه رحل العقلُ

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغلُ

فقالت العجوز :

– ولكن أتعرف من هي عائشة ؟

– هي جميلة وطاهرة ، وقد اختارها قلبي عروساً لي وكفى .

– ألا تخشى أن تكون من بيت وضيع .

– بيتها كيفما كان هو خيرٌ عندي من قصور الملوك والأمراء .

– جُزيت خيراً ووُقيت ضيراً ... قد تحقق الآن لديَّ ما كنت سمعته من الثناء عليك وكشفت لي ما أنت تطويه من الشهامة والمروءة التي أقرُّ لك بها أعداؤك قبل أصدقائك وكفاك فخراً فإن الفضل ما شهدت به الأعداءُ ، ثم تبسمت وقالت أتظنني كنت جاهلة جولانك حول البستان ، وكيف كنت وعائشة تتسارقان الحديث ؟ كلا كنت واقفة على كل شيء ؛ إذ لا شيء يخفى على لبِّ والدة ، أو بالحرى على صديقة مخلصة ، فقد أزف الوقت الذي يجب أن أبوح لك فيه بسرّي .. ثم صمتت قليلاً والتفتت إلى الباب ثم قالت همساً ... أي بك أفندي نعم لست بوالدة عائشة ...

فلم يجب صلاح الدين بشيء ؛ لأنه كان قد خامره الريب بذلك ، فقالت : يجب أن أقصَّ عليك الخبر وأطلعك على كل شيء لتعرف كم كلَّفت الحورية التي أحببتها من

الدم والدمع ... وشرعت تقص عليه مأساة إقبال هانم - كما ذكرناها سابقًا - فارتجف قلب صلاح الدين من تلك القسوة البربرية وطار قلبه شعاعًا لما فهم خبر مقتل والدة حبيبته بالتفصيل فصاح :

- ولكن أيمكن ارتكاب مثل هذه الفظائع فى أيامنا هذه ؟

- نعم ... الانتقام هائل ، وأشدّ هولاً منه متى كان لا مردَّ لهُ .

- من يعلم هانم أفندى إذا كان لا يأتى يوم يخشى فيه السلاطين رعاياهم .

- لسنا بعد لسوء الطالع فى أوروبا والسلطان لا يزال الآمر المطلق بلا قيد ولا نظام ... هذه مشيئة اللّه .

- كلاَّ إن اللّه سبحانه وتعالى لا يرضى بخراب مملكته ، فهى صائرة إلى الخراب والاندثار إذا بقيت فى أيدى الظلمة العتاة .

- أرجوك بك أفندى بإلحاح ألاَّ تتداخل فى الأحزاب السياسية .. دع التقادير تجرى فى أعنتها ، ودع الرجال يسيرون كيفما شاءوا ، وأنت إذا شئتَ أن تكون عائشة عروساً لك إياك إياك والانضمام إلى الحزب الذى يلقب نفسهُ بحزب الإصلاح ، أولئك الذين عادوا من أوروبا وقد ملأوا رؤوسهم من الأفكار الحرة الجديدة التى يستحيل إجراؤها ، فيجب على الإنسان أن يحب اللّه قبل عائلته وعائلته قبل وطنه ...

- لا هانم أفندى لا أخالك تشترطين علىَّ جحود وطنى ... ولكن خفضى عنك : فلى يمينٌ أساعد بها وطنى وقلبٌ أحب به امرأتى ... ...

* * *

وعاد صلاح الدين إلى «أورطه كى» عند منتصف الليل ، فقضى ثلاثة أرباع الساعة فى البوسفور لأن الهواء كان معاكساً ، فلما وصل إلى قرب البيت وجد الأنوار تتدفق

من جميع نوافذه ، فظنَّ أنَّ زائراً كريماً جاءهم فى أثناءِ غيابه ، فلما دخل السلاملك وجد صناديق سفره وأمتعته توضع فيها باعتناء ، فصاح بالخدم :

– ما هذا ؟ ولمن هذا الاستعداد ؟

– لسفر سعادتك .

– لسفر مَن ؟

– لسفر سعادتك ، إذ ميعاد السفر الساعة واحدة ، وها قد أزفت الساعة .

فحار صلاح الدين فى أمره وظنَّ نفسه فى منام أو أن الخدم قد اعتراهم الجنون فدفع باب غرفة الاستقبال فوجد والده الشيخ مع صديقه حسن الشركسى وبعض الجيران بانتظاره يتحدثون ، فصاح به والده قد أطلت الغيبة ونحن هنا جميعًا بانتظارك ، وقام حسن يصافحه وهو يقول :

– إنى بانتظارك منذ ساعتين وقد جئت ناقلاً إليك إرادة سنية تقضى عليك بالسفر الساعة مع ك ... باشا الذى سيركب الباخرة «سلطانية» إلى مرسيليا قاصداً باريس لتقديم أربعة رؤوس من الجياد العربية هدية إلى الإمبراطور نابليون الثالث وقد اختار جلالة السلطان أن تكون بمعية الباشا .

– ولكن من ذا الذى أشار على السلطان باختيارى لهذه المهمة ، فلا أخفى عليك بأنى مستاء من هذه البعثة خصوصاً فى الظروف الحاضرة .

– أعرف ذلك ... ولكن لا أدرى سبب هذا الاختيار ، ومهما كان الأمر فغيبتك ستكون قصيرة الأجل إن شاءَ اللّه ، ثم انزوى مع صديقه وقال لهُ همسًا : بلغنى أن السبب فى هذه البعثة هو أن السلطان قد باغتك صباح يومٍ تحدث فتاة مسلمة على

قارعة الطريق .. طريق بيكلر بك ... أتذكر ذلك ، وأنت تعلم صرامة السلطان في وجوب الحرص على عوائد المسلمين ... وقد جاءَ من أوروبا أكثر صرامة من ذي قبل .

– ولكن هذه الفتاة هي خطيبتي ... وستكون عن قرب امرأتي .

– السلطان يجهل هذا على كل حال ولكن العقاب ليس بصارم ...

– فتنهد صلاح الدين من قلب مقروح ؛ لأنه كان مضطراً للسفر إلى أوروبا دون أن يمتع طرفه برؤية مليكة فؤاده ووداعها ، ثم التفت إلى صديقه وقال له :

– أي حسن أنت صديقي وخليلي وأنت سندي وعمادي وأنت عالم بحبي لعائشة ، فهل أحتاج بعد الآن إلى توصيتك بها ... كن لها أخًا وسندًا لأن أعداءها قديرون .

– لا تخش شيئًا وضع ثقتك بأخيك وتوكل على اللّه .

– إذن لم يبقَ عليَّ إلا وداع والدتي انتظرني قليلاً ... سنعود إلى إستانبول سوية .

ودخل صلاح الدين إلى الحرم يقضي لدى والدته واجب الوداع وعاد حسن إلى السلاملك والناس يبالغون في ملاطفته ويهنئونهُ بترقية رتبته إلى أميرالاي ؛ إذ علموا أن السبب كان حظوة شقيقته مهري في عين السلطان عبد العزيز ، وكانت قد أحست الباش هانم في السراي الهمايوني بعد أن كانت جارية فيه .

وركب في ذلك المساء بعينه ك ... باشا وصلاح الدين بك الباخرة « سلطانية » فأقلعت في الحال .

وبعد ثمانية أيام وصل إلى وزارة الخارجية في الآستانة التلغراف الآتي الذي ضُـرب في إيجازهِ المثل وطاف العواصم الأوروبية وهو بنصهِ وفصهِ :

« نحن والبهائم وصلنا بصحة جيدة » .

(٧)

صيرورة السرّية سلطانة

لا غرو أن تشوّق القارئُ إلى معرفة الكيفية التى توصلت بها مهرى إلى صيرورتها محظية السلطان عبد العزيز ... على أن السبب بسيط :

وإذا أراد اللّهُ نصرة عبده   كانت له أعداؤهُ أنصارا

والحظ إذا ساعد الإنسان أوصله إلى معارج العز والفخار، وهذا رفع مهرى هانم إلى مقام سلطانات آل عثمان بعد أن كانت إحدى جوارى والدة السلطان . أما الواقعة فهى أن السلطانات رغبن فى يوم قد صحا جوُّهُ واعتلّ هواؤه أن يتغذين فى بستان بيكلربك ، وصادف ذلك النهار أن خرج السلطان إلى نفس البستان ، ودخل فى أحد الكشكات الجميلة المتفرقة فى أنحاء الحديقة وقد التفت حوله الأشجار الكثيفة والرياحين والأزهار بأبهى مشهد وأحسن منظر .

ولم يكن السلطان فى تلك الساعة مهتمًا بتسريح طرفه فى تلك المناظر البهجة التى يحق له أن يفاخر بها ملوك الأرض طرًا ، بل كان واقفًا وراء ستار حريرى مرسلاً بنظره إلى الطريق كأنه ينتظر مرور شخص تهمُّهُ معرفتهُ ، فبعد أن انتظر قليلاً عيل صبره ، فالتفت إلى خصيه ونديمه الخاص وقال :

– قد بكرنا بالمجيء فحرارة الشمس لاذعة ولا أظنهما تخرجان الساعة .

– كلا بل قد خرجتا مثل هذه الساعة الاثنين الفائت .

– وهل أنت واثق أنهما غاية فى الجمال والبهاء وأنهما تحبانني ؟

– نعم إنهما غاية فى الحسن ونهاية فى الجمال ، وإن إحداهما صرّحت بهيامها بجلالتك .

– وهل أنت واثق من أنها صرَّحت بذلك عفواً من غير قصد ولا أمل أن يسمعها أحد فينقل كلامها إليَّ .

– نعم باغتُّها تبوح بسرّها همساً إلى رفيقتها دون أن تراني أو تشكَّ بي .

– كنت أحب أن أسمع هذه النجوى بأذني ، فقد سمعت النساء كثيراً يقسمن بحبي لكن لا أعرف إن كنَّ يبحنَ بحقيقة ما يضمرنَ .

– ولكن هذه مولاى من حرم جلالة السلطانة الوالدة .

– وكيف لم ألمحها حتى الآن ؟

– يصعب تمييز الجمال متى كثر ... ولكن ها هى قادمة لتفتح الباب الصغير لصديقتها وجارتنا .

– فأطلّ السلطان فوجد عائشة قد دخلت وطوّقتها مهرى بذراعيها فتعانقتا طويلاً، ثم دخلتا البستان سوية فنادى السلطان الخصيان أن يتبعوه ، وكان كلما سار خطوة وقف يلهث من التعب لشدة سمنه وضخامة جثته ، لكنه كان على الرغم من ذلك باقيًا لذلك العهد جميل الصورة بهيّ الطَّلعة مهاب المنظر ، فلما وصل إلى أمام الباب تقدم إلى الطريق وعاد على أعقابه غاضباً مذعوراً ، فصاح الخصى :

– ما بال جلالتك ؟

– لسنا وحدنا فى القنص .

فتقدم الخصيان فوجدوا فارسًا مرتديًا حلة ياوران واقفًا ينظر إلى الفتاتين المتعانقتين ، وكان هذا الفارس صلاح الدين ، فلما أبصرته مهرى ورأت السلطان يباغتهما أيضًا أفلتت يدها من صديقتها واحتجبت وراء غيضة ترتجف خوفًا ، وما إن لمحت عائشة صلاح الدين حتى تقدمت إليه ومدت له يدها فقبلها مراراً ، ثم اتكأت على حصانه وكشفت نقابها عن محياها الجميل تبسم له وقد رقص فؤادها طربًا .

فوقف السلطان خمس دقائق ينظر إلى ذلك المشهد الحبى الذى لم يكن قد شاهده من قبل ، ولربما أخذته الغيرة من صاحبه وحسده على حبه وشغف قلبه بحبيبته وقد لمحت مهرى ذلك فكادت تذوب غيرةً وحسداً .

ثم أقفل السلطان الباب بعنف قائلاً : أهكذا تُثَقَّفُ بناتنا المسلمات وأولئك الشبان الذين نرسلهم إلى أوروبا هم الذين يحملون إلينا هذه العادات المذمومة ويسمونها التقدُّم والمدنية فيدوسون شريعتنا المقدسة . قال هذا وسار فى طريقه .

فتقدم خصى السلطان الخاص إلى مهرى ، وكان قد شاهدها وانتهرها قائلاً :

– أتعرفين «إقبالَ» هذه ؟

فانتفضت مهرى عند سماعها هذا الاسم (إقبال) وأجابت :

– لا أعرف ماذا تعنى بقولك هذا ؟

– منذ كم من الزمان هذه الفتاة مقيمة فى بيكلربك ؟

– لا أعلم بالتمام .

– أخطيبة صلاح الدين بك هى ؟

– لا أظن .

– كيف لا تظنين ، أنت صديقتها وخليلتها وموضع سرِّها ، وتجهلين هذه الأمور كلها .

فصمتت مهرى ولم تجب بحرف ، فقهقه الخصى وقال : من الحمق سؤالك ؛ لأنى عالم بكل شىء ، ثم تركها وانصرف .

فوقفت مهرى مبهوتة تنظر إلى ما حولها مفكرة بما شاهدت وما سمعت ، وظنت أنها فى منام وقد تجاذب قلبها عاملان الصداقة والغيرة ؛ إذ إن كلمة واحدة منها

كانت كافية لهلاك صديقتها أو لنجاتها ، لكن غلبت الصداقة الغيرة فاستدعت إحدى جواريها المخلصات لها ، وقالت لها :

– أتحبيننى يا زعفران ؟

– لِمَ هذا السؤال مولاتى ؟

– أريد منكِ القيام بخدمة هامّة .

– مرى بما تريدين .

– يجب أن تعدينى بكتمان السرّ .

– ثقى واطمأنى .

– يجب أن تكونى حريصة . ارتدى ملاءتك بالعجل ، وخذى غرشًا بيدكِ ، فإذا سألك أحدٌ إلى أين تخرجين أجيبى أنك ذاهبة لمشترى حلوى .

– وبعد ذلك .

– فإذا وصلتِ إلى طريق بيكلر بك المؤدية إلى تشماليجه تيممين بستان فاطمة العجوز .

– والدة صديقتك عائشة .

– هى بعينها فتدخلين عليها وتهمسين فى أذنها قائلة : أرسلتنى مهرى إليكِ لأخبرك بأن الخصى عليًا عالم بكل شيءٍ وبوجودك فى بيكلربك .

– أهذا كل ما تريدين ؟

– نعم ، أتتذكرين ما قلتُ ؟

– نعم أتذكره جيدًا .

– العَجَل العَجَل يا عزيزتى ، وإذا صرتُ يومًا ما سلطانة ..

فوقفت الجارية وقالت : ماذا تعملين لى ... ؟ .

- أتحفك بالهدايا والعطايا .. العَجَل العَجَل .

* * *

وبقى السلطان ذلك النهار بطوله مقطب الوجه لا شىء يسرُّهُ ولا المملكة تشغله ، فلما غابت الشمس وطلع القمر يرسل أنواره اللجينية على مياه البوسفور وقد سكن الهواء وساد السكون قام السلطان إلى شرفة قصره واتكأ على الحاجز الحديدى مسرّحًا طرفه فى ذلك الفضاء فانتعش فؤاده وارتاحت نفسه ، وإذا به يسمع صوتًا حنونًا رخيمًا ساعده سكون الهواءِ على سماع إيقاعه وألحانه وكلامه جميعًا فرقص له فؤاده طربًا واهتزَّت جوارحه ، وكانت الأنشودة غرامية صادرة عن قلبٍ قرَّحهُ الحبُّ وبرَّحهُ الشوق فانتصب السلطان وكاد يقطع أنفاسه كى لا تفوته نغمة من أنغامه ، ثم نادى خصيَّه وقال له :

- تعال واستمع . ما هذا الغناء فى البستان ؟

- لا بد أنه صوت جارية من جوارى حرم والدة جلالتك ، فقد دعت السلطانات هذا المساء للعشاء فى البستان .

- اذهب وجئنى بها فقد أعجبنى غناؤُها .

وانقطع الصوت ، فقام الخصى مهرولاً إلى أعلى البستان امتثالاً لأمر مولاه ، فوجد السرارى جميعًا قد أحطن بمهرى إحاطة الهالة بالقمر وقد ظللنها بالأزهار والرياحين لحُسْن غنائها ، فلما أطلَّ الخصى صِحْنَ به جميعًا تعال واستمع غناء مهرى ، فأجاب :

- صوتها أرخم من بعيد .

- لا لا هو أرخم بكثير من قريب .

- تعالِى مهرى لنذهب إلى ما وراء هذه الغيضة فيتحققنَ قولى ، فَصِحْنَ جميعهنَّ لا بأس اذهبى يا مهرى ، وسنبقى نحن هنا لنرى من المصيب .

فأخذ الخصى بيدها وسار بها قاصداً الكشك الذى كان السلطان بانتظارها فيه ، فلما ابتعدا قليلاً خافت مهرى من طروء أمرٍ ما فقالت للخصى بصوت مرتجف إلى أين تقودنى ؟

– جلالة « البادشاه» يرغب فى سماع غنائكِ ، فأفرغى الجهد فى الإجادة ، فلما وصل إلى أمام الباب دفعها أمامه وقال : هذا هو الكنارى يا مولاى .

فلم يتمالك السلطان من إخفاء إعجابه بجمال تلك الغادة الهيفاء وقد صبغ الحياء وجهها فزادها جمالاً ، وكانت القيثارة ترتجف بين يديها ، فقال لها السلطان متلطفًا باسمًا ادخلى يا بنية ... لا تخافى . وتناول الخصى وسادة من المخمل وطرحها وراء مهرى قائلاً لها : اجلسى وانشدى نشيدك المشهور «ذهب العاشق» ، فجسلت مهرى وقد اصفرَّ لونها وشرعت تنظم أوتار قيثارتها بيدٍ مرتجفة ، ولكن لما أرادت الغناء خانها جلدها فأجهشت فى البكاء فدهش السلطان وقال : اللّه ما هذه الفتاة ؟ وما معنى هذا البكاء ؟

– فقال الخصى : هذه هى مهرى الفتاة التى شاهدناها مع صديقتها هذا الصباح فى البستان ، ثم همس فى أذنه : وهى الهائمة بحب جلالتك .

فحدق السلطان بها وزاد إعجابهُ بجمالها على إعجابه ببكائها والنساء أشوق ما يكنَّ إذا بكين ، ثم أخذ فى ملاطفتها حتى ثاب إليها وعيها ، فبدأت بنشيدها المذكور بصوت مطرب خارج من صميم فؤادها ، فاهتزت له جوارح السلطان طربًا ورقص فؤاده فرحًا وأخذهُ الهوس ، فتناول من خنصره خاتمًا كريمًا على فصٍّ من حجرٍ ماس كبير وتناول مهرى وألبسها إياهُ بيده ، فقبلت طرف ثوبه وهى لا تكاد تصدّق ما هى عليه ...

* * *

وأخبر فى الغد الخصى رفقاءه بهذه الحادثة وختمها قائلاً : هكذا تصير السرّية سلطانة ...

(٨)

وصول الإمبراطورة أوجينى إلى الآستانة

كانت الآستانة فى ٧ سبتمبر ١٨٦٩م فى قيام وقعود استعداداً لاستقبال زائر كبير وضيف عظيم ، وكانت ألوف من الزوارق ومئات من البواخر مكتظة بالمتفرجين والمستقبلين تشقُّ عباب البوسفور ذهابًا وإيابًا ، وكان أهالى الآستانة كباراً وصغاراً يتسابقون ويحتشدون بين شاطئ أوروبا وآسيا لانتظار ذلك القادم العظيم وقد رفعت الحرم من مقاصيرهنَّ الحواجز الشبكية وصوَّبن نظاراتهن نحو بحر مرمراً يستطلعن تلك الباخرة التى تقل ذلك المنتظر . وقد حق لهم جميعًا ذلك الانتظار وذلك الاحتفال ، لأن الزائر ذلك اليوم كان الإمبراطورة أوجينى قرينة نابوليون الثالث ، وكان نابوليون الثالث فى ذروة مجده وقمة سؤدده ، وكانت تلك هى المرَّة الأولى التى جاءت فيها إمبراطورة فرنسوية إلى عاصمة الشرق زائرة حالَّة ضيفة كريمة عند سلطان آل عثمان .

وكان السلطان عبد العزيز – كما ذكرنا – ميالاً إليها معجبًا بجمالها فبالغ فى الاحتفال بقدومها والاحتفاء باستقبالها حتى إنه أمَر بتجديد فرش السراى كله وبأن يُجلب من باريس أثاث للغرفة التى أعدها للإمبراطورة كأثاث غرفتها فى قصر التويلرى تمامًا حتى لا يخال لها أنها خرجت من سرايها . وأنشأ زورقًا يبهر الأنظار بقبته المذهبة وستائره المخملية ومقاعده الحريرية وكل ذلك لنقلها بضعة أذرع من الباخرة إلى السراى وغير ذلك من الاستعداد الدالّ على الكرم الشرقى والبذخ التركى . وكانت الشمس ذلك اليوم ساطعة والجو صحواً والهواء بليلاً ، فلم يلبث الناس طويلاً فى الانتظار حتى أطلَّت الباخرة «النسر» الباهرة تقل جلالة الإمبراطورة ، فبدأت الحصون والمعاقل بإطلاق المدافع تبشيراً بقدومها ، وسارت الدوارع التركية إلى لقائها ، فأحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم ، وقد صعد البحارة إلى أعلى السوارى يصيحون « لتحيا الإمبراطورة أوجينى » .

فلما وصلت الباخرة أمام سراى بيكلربك المعدّ لنزول الإمبراطورة ألقت مرساتها وانحدر السلطان بنفسه إلى لقائها وأخذت الموسيقى تصدح بأنغامها ، فلم يطأ السلم حتى رفعت الباخرة العلم العثمانى يخفق مع العلم الفرنساوى المثلث الألوان .

ولم تمض برهة يسيرة حتى أطلّ السلطان عبد العزيز من أعلى السلم مرتدياً ثوباً مثيراً وذراع الإمبراطورة ملتفٌّ بذراعـِه وهى لابسة ثوبًا جميلاً ناصع البياض يزيدها حسنًا وجمالاً ، وقد أثـّرَ بها ذلك المشهد البديع والاحتفاء الشائق .

وأجلسها السلطان فى الزورق عن يمينه ، وكان السفراء والوزراء والأمراء والعلماء وكبار المملكة جميعًا بانتظار جلالتها فى سراى بيكلربك ، فقدمهم السلطان إليها ، ثم عاد إلى سراى «طلمه بغجه» حيث كان قد أعدّ لها مأدبةً شائقة للمساء .

وكان بين ذلك الجمع المزدحم شابٌّ جميل الصورة شركسى المنظر برتبة أميرالاى يحاول عبثًا الوصول إلى الإمبراطورة فيحول دونه الزحام ، ثم رأى بين ذلك الجمع وجهًا يعرفه ، فبرقت أسرَّةُ وجههِ فرحًا إذ رآهُ يتبسم له ويشير إليه بالتقدم منه ، فلما وصل إليه مدَّ له يده وصافحه قائلا :

– كيف حالك يا صلاح الدين ؟ قد أنقذتنى الآن لأنى كدت أموت خنقًا من الزحام .

– انتظر قليلاً لأقدِّمك إلى جلالة الإمبراطورة ، فإن سفيرى روسيا والنمسا يحيطان بها الساعة .

– مسكين أنت يا صلاح الدين من كان يقول إنك ستقضى سنتين فى سفارة باريس وأنت قد سرت للقيام فيها بضعة أيام .

– نعم قد طال غضب السلطان علىَّ وبحجة ترقيتى أبعدونى قصيًا ، ولكن لم أعدم لحُسن الحظ الأخبار السارة ، فهى التى ساعدتنى على احتمال مصابى على أن الفضل عائدٌ إليك يا حسن وإلى كتبك المتواصلة .. فى كل حال .

– لم أقضِ إلاَّ واجب الصداقة والإخاء ... ويا حبذا لو أمكننى المزيد .

أنا معترف بجميلك ذاكر معروفك ، ثم التفت نحو الإمبراطورة فقال : تعالَ لأقدِّمك إلى جلالتها إذ الفرصة مناسبة .

ولما كان صلاح الدين قد عُيِّنَ حاجبًا خاصًا للإمبراطورة حقَّ له تقديم صديقه حسن الذى كان يجهل اللغة الفرنسوية .

فاستقبلتهُ الإمبراطورة بلطفها المعهود ، والتفتت إلى صلاح الدين قائلة : اعذرنى أمام مواطنيك لجهلى اللغة التركية إذ يعسر علىَّ مجاوبتهم على تهانيهم وليس لدىَّ ترجمان أبرع منك وأنت تحسن اللغتين . فانحنى الضابطان احترامًا وامتنانًا ورجعا القهقرى مسلمين ، ومن ثم انحدر الصديقان إلى زاوية البستان عند شاطئ البحر يتحدثان .

– فقال حسن : لا شك أن مأموريتك قد جعلتك أسيرًا ، فمتى يتسنى لك يا ترى الذهاب إلى اورطه كى ؟

– لا أعلم ، لكن لا بدّ ، من ذلك فقد صافحت والدى للساعة بين القوم ، ولم أتمكن بعد من معانقة والدتى وإنى أنظر البيت فهو لم يتغير من ظاهره شىء ، ثم حدّق بنظره إليه قليلاً وقال : الحمد للّه ، ثم الحمد للّه ها أنا فى تركيا ، ويخال لى أنى كنت فى منام وما شاهدته أضغاث أحلام وقد عزمت على الإقامة هنا ولو كلفت الاستقالة لأنى أريد الاقتران .

– قد أحسنت وأصبت .

وأدرك حسن أن صديقه سيلقى عليه أسئلة يريد التملص منها ويثقل عليه الجواب عنها ، فقال صلاح الدين مستأنفًا :

– لم تذكر لى شيئًا يا حسن فى كتابك الأخير المؤرخ فى ١٠ مارس عن فاطمة هانم ، وقطعت منذ ذلك العهد أخبارك ، فَلِمَ هذا الصمت ؟

– بلى حررت لك مرتين من ذلك التاريخ ، ألم يصلك شىءٌ منى ؟

– لا ولكن كيف حال فاطمة هانم وعائشة ؟

– عائشة هانم هى بكل خير وعافية ، أما فاطمة هانم فكنت واهمًا أنك عالم منذ شهرين .

– بأىّ شىء ؟

– بوفاتها .

– أماتت ؟! لا إله إلا اللّه .. وقد بقيت عائشة وحدها مع أحمد ، ولكن لِمَ لَمْ تأخذها والدتى إلى اورطه كى ؟ مسكينة .. لا شك أنها اتهمتنى بالصد والجفا ويحق لها الشكوى .

وتضايق حسن من هذا الحديث وأراد التخلص منه فقاطعه الكلام قائلاً :

– خصى شقيقتى مهرى سلطانة يدعونى ، فصاح صلاح الدين مدهوشًا :

– مهرى سلطانة ؟

– ألا تعلم أنها رُزقت ابنًا .

– عرفت أن قد رُزق السلطان ابنًا ، ولم أعلم أن مهرى والدتهُ ، فقال حسن مودّعًا أى واللّه ، ثم تركه وانصرف .

وغادر حسن صلاح الدين وحده يتعثر بأذياله ويفكّر بما سمع وما رأى ويتساءل كيف أن فاطمة هانم قد ماتت ولم تعتنِ والدته بعائشة ولم تأخذها إلى منزلها بعد أن عاهدته قبل سفرهِ على ذلك ، ولِمَ كان وجهُ والدهِ عبوسًا فى الصباح ؟ وكيف لم يذكر له حرفًا عن خطيبته وهى مع ذلك لا تزال على قيد الحياة كما أكد لهُ حسن ، وكان يشتدُّ قلقهُ واضطرابه كلما فكّر فى أن مليكة فؤادهِ هى على بعد بضعة خطوات منه فى بايكوس وهو لا يستطيع الطيران إليها مقيد بخدمة الإمبراطورة ، ثم قام إلى السراى فجعل يطوف غرفها ليرى إذا كان لا يزال والده حميد باشا بين المهنئين ، فوجد أنه كان فى مقدمة المنصرفين ، فانطرح على متكأ وقد علت وجهه أمارات

الاضطراب تشاؤمًا من أمرٍ جلل حدث فى أثناء غيابه . وإذ تذكر أن الإمبراطورة مدعوّة فى المساء إلى العشاء فى « طلمه بغجه » ، وعليه السير فى معيتها قطع كل أمل من الذهاب إلى بايكوس ومشاهدة مليكة فؤاده .

ثم سمع حفيف ثوب فذعر وأنصت بسمعه مبهوتًا وإذا به وجد الإمبراطورة أوجينى واقفة أمامه وهى فى ثوبها الحريرى الباهر والجواهر تتلألأ عليها كالكواكب ، فرأت على وجهه أمارات الاضطراب والاكتئاب ، فقالت له باسمة متلطفة :

– كنت أظن وصولنا إلى البوسفور يملأ قلبك فرحًا وسرورًا فإذا بى أراك حزينًا آسفًا .

– مولاتى ليس السبب إلاّ عائلى .

– ألم يطمئنك والدك هذا الصباح ؟ أرى أن والدتك لا تزال على قيد الحياة ، وأنك ذائب شوقًا إلى مشاهدتها ، فبرقت أسرّة صلاح الدين لهذا السؤال وأدركت الإمبراطوة فرحة فقالت له :

– أعفيك من الخدمة هذا المساء ، فإلى غدٍ «مسيو صلاح الدين» .

– ألف منة وشكر لنعم جلالتك .

فحيتهُ الإمبراطورة بابتسامة وسارت تتبعها حاشيتها .

فطار صلاح الدين بأقل من طرفة عين إلى الشاطئ وقفز إلى أحد الزوارق ليس لمشاهدة والدته كما وهمت الإمبراطورية ، بل إلى بايكوس لمشاهدة خطيبتهِ ومليكة فؤادهِ ، لأن عوامل الغرام أشدّ فعلاً من عوامل الحب البنوى . فلم يصل إلى بايكوس إلا بعد ساعة وكانت الشمس قد غابت واشتدّ الظلام ، فلم يهتد إلى الطريق وأضاع السبيل لأنه لم يكن يعرف بايكوس إلاّ مرّة جاءها مساء ، وكان أحمد دليلهُ فحاول عبثًا الوصول إلى بيت عائشة والاهتداء إليه لأنه فضلاً عن مضى سنتين على زيارته الأولى كانت حريقة هائلة قد دمّرت قسمًا كبيرًا من القرية ، فارتعدت فرائصه خوفًا

من أن تكون النار التهمت بيت حبيبته ، وبينما هو يطوف طرقاتها الضيقة ، وإذا به عرف البيت فى منعطف طريق ووقف يطرق الباب وهو لا يسمعه إلاَّ دقات قلبه ، فجاء شيخ جليل بيده شمعة وفتح له فقال صلاح الدين :

– عفواً أيها الشيخ الجليل من إزعاجي إياك ليس هنا بيت أحمد أفندى ؟

– أيهما تريد ؟ أأحمد الشاب الذى تزوَّج منذ عهد قريب أو أحمد الدرويش ؟

– لا هذا ولا ذاك بل أريد أحمد أفندى خادم المرحوم محمد باشا التونسى ، أليس هذا «قناق» (منزل) فاطمة هانم ؟

– تريد القادين العجوز ؟

– نعم .

ألا تدرى أنها ماتت منذ شهرين ... ولكن تفضل بك أفندى واشرب فنجان قهوة .

فدخل صلاح الدين رغبة الوقوف على ما جرى فعرف للحال أن البيت بيع بعد وفاة فاطمة هانم ، وأن عائشة وأحمد هاجرا بايكوس منذ أواخر شهر تموز (يوليو) فشكر صلاح الدين الشيخ عَلَى إفادته وعاد إلى زورقه مسرعًا قائلاً للنوتيين وقد وجدهما ملتفين بالعبى راقدين : العَجَل العَجَل إلى اورطه كى . فنهضا للحال وشرعا بالتجديف ، واتكأ صلاح الدين على وسادة ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقد رصعتها النجوم ، فقال فى نفسه : يا لهُ من بله لا شك أن عائشة هى عند والدتى ، وكان يجب أن أذهب أولاً إلى معانقتها ، ولكن الحمد للّه فهم يعرفون أنى مقيد بخدمة الإمبراطورة وإلاَّ لقلقوا من أجلى كثيراً .

وأخذ يفكِّر فى أحواله مستغرقًا وظن النوتيان أنه قد رقد ، فلم ينبسا ببنت شفة حتى وصلا إلى اورطه كى ، فنادى به أحدهما : بك أفندى قد وصلنا . فنفحهما صلاح الدين أجرة مضاعفة ، وقام إلى بيته مهرولاً ، وكانت الأزقة خالية والصمت تاما فلما أطلَّ على البيت وجده مظلمًا ، فقال فى نفسه : « وقد رقدت الحبيبة وقطعت الأمل من مجيئى » ، ثم طرق الباب بمطرقته الحديدية بعنف فهرول الخدم للقائه ، ولما عرفوه

أخذوا يهنئونه بسلامة الوصول . فسألهم عن والده فأجابوا أنهُ فى الحرم . فسار إليه وطرق الباب فسمع صوت جارية تقول :

– من هذا ؟ فقال : أنا صلاح الدين . فعلت صيحة الجوارى فرحًا وسرورًا بقدومه ، وقامت والدته للقائه ، ولم يكد الباب يفتح له حتى انطرح بين يديها يقبلهما وهى تضمه إلى صدرها وتقول مكررة : الحمد للّه قد شاهدتك سالمًا معافى بعد غيبة سنتين ولكنى رأيت هذا اليوم أطول من العامين لأنك كنت قريبًا منى وبعيدًا عنى .

وأراد صلاح الدين أن يسألها عن عائشة وسبب عدم وجودها معها ، لكنه تربص ريثما فرغت من معانقته وتهنئته ، ثم سألها : أين عائشة ؟ فتصامت والدته أولاً عن هذا السؤال فكرره ثانية فحدّقت إليه بنظرة كئيبة تطيّر منها صلاح الدين ، فصاح مذعورًا : أين عائشة يا أمّاه ؟! فكان جوابها أن أجهشت بالبكاء ، فصرخ صلاح الدين أماتت ، ياللّه يا للمصاب ، وكادت العبرات تخنقه .

– فأجابه والده بصوت مهيب وكان قد وطئَ عتبة الباب لا لم تمت .

– إذن تزوّجت ؟

– لا لم تتزوّج .

– إذن ماذا أصابها إذا كانت لم تمت ولم تتزوّج وهى ليست هنا ، أخانت عهدى يا ترى ؟

فأجابت والدته : لو كان الأمر كذلك لما بكت والدتك ابنةٌ خانت عهد ولدها .

– فأين هى الآن إذن ؟

– هى فى السراى .

فعضّ صلاح الدين على شفته حنقًا وغيظًا ، لكنه تجلّد وقال : أتعرفين السبب والتفصيلات ؟!

– اجلس لأخبرك يا ولداه بما حدث ، ثمّ مسحت دموعها وشرعت تقصّ عليه ما جرى فى غيابه ...

(٩)

حماماتان

ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّد

فقالت : أى ولدى العزيز عدنى ألاَّ تتألم مما ستسمعهُ ، وأن تعتصم بالصبر الجميل وتستسلم إلى القدر متكلا على اللّه المتعال ... أنت تعلم أن لا شىء كان أحبَّ لدىَّ من أن ترانى اليوم مقدمة لك حبيبتك قائلة : هذه يا صلاح الدين خطيبتك قد عاشت فى حرم والدتك وبعنايتها ربيت وهى لا تزال طاهرة نقية كالثلج ... ولكن :

ما كل ما يتمنى المرءُ يدركهُ تجرى الرياحُ بما لا تشتهى السفنُ

ذهبتُ فى غد سفرك إلى بايكوس وبلغت فاطمة وعائشة امتثالك للأمر الشاهانى وأمر بعثتك إلى باريس ورجوعك قريبًا منها ... ولا أخفى عليك أنى دهشت لما شاهدت ذلك الجمال البارع الذى ازدانت به عروسك ، وزدت بها حبا لما رأيتها تذرف الدموع السخينة عندما بلغها خبر سفرك الفجائى واشتداد حزنها لغيابك وبعادك ... وكنت أتردد إلى بايكوس المرة بعد المرة لا يصحبنى إلا ظئرك (مينور) التى تعرف إخلاصها لنا . وأما صديقك حسن بك الشركسى فكان أولاً قليل التردد على بايكوس ، ولا أعرف بأى صدفة التقى بعائشة يومًا من الأيام فى (السلاملك) ، أما هى فاحتجبت بسرعة ولم يلحظها هو إلا لحظة واحدة كانت كافية لأن تشعل قلبه حبًا وهيامًا بها ، فأكثر حينئذٍ من ترداده ، وهذا هو السرُّ عندى فى تظاهره بصداقة أحمد ، وكان يجىء كل مرة بحجة أنه مرسل من قبل شقيقته السلطانة مهرى للسؤال عن عائشة حاملاً لها الأزهار المختلفة والأثمار المتنوعة ، ثم حمل إليها مؤخراً بعض الحلى الثمينة فأدركت فاطمة هانم السبب فرفضتها ، وأظهرت له عائشة الجفاء بعد ذلك حتى اضطرته إلى الانقطاع عن الذهاب إلى بايكوس .

وكان المرض قد بدأ ينخر فاطمة هانم يومًا بعد يوم ، وشعرت هى بدنوّ أجلها ، فكانت تقول لى مرارًا : (آه .. لو كان على الأقل صلاح الدين بك هنا ؟) .

ثم جاءنى أحمد فى صباح شهر أغسطس مذعورًا ، وقال : اشتد المرض على فاطمة هانم فأرجوك العَجَل . فهرولت إلى بايكوس مسرعة فوجدتها تحتضر ، أما هى فجمعت قواها الخائرة لما أبصرتنى ، وحاولت أن تسند رأسها وقالت لى : عائشة .. عائشة أرجوك العناية بها .. احرصى عليها من عليَّة سلطانة ... وانطرحت عائشة عليها تبكى وتنتحب فقبَّلتها فاطمة قُبْلَة لفظت بها روحها الكريمة ، وللحال اجتمعت نساءُ الجيرة وبدأنَ يصحنَ ويولولن وعائشة تزيد فى البكاءِ والنحيب ، وقلت لظئرك أخيرًا أن تضع ملاءة وفراجية على عائشة لا عود بها فى الحال .

وفيما نحن على ما سمعت ، وإذا بعربة وقفت أمام الباب ودخل علينا خصى هائل فى الكبر وشق الجمع بيديه مناديًا : سمو السلطانة عليَّة .. فلما سمعت هذا الاسم اضطربت حواسى ، وخفت من أمرٍ مفاجئ ، واختبأت عائشة ورائى ، واختفى أحمد وراء الجميع فتقدم الخصى وهو علىّ اللعين إلى فراش الميتة وقال :

– فاطمة هانم سمو السلطانة عليَّة شرفتك بزيارتها فأجابته النسوة : هى ميتة .

فصاحت السلطانة مذعورة : ميتة .. إلى أين قدتنى يا علىّ تعالَ نخرج سريعًا ، فقد أخافنى هذا الموت . أما الخصى فكان كالغراب الذى لا يلذ له إلا نهش لحوم الأموات ، فأخذ يدير ألحاظه بين الحاضرين حتى وقع على أحمد فعرفه فتقدم إليه غاضبًا وأمسكه بعنقه وتقدم به إلى السلطانة قائلاً : هذا هو أحمد الخائن قد شاب شعره منذ ست عشرة سنة ، ولكن لم يزل على خبثه . وأحمد الذى تعرف سكون جأشه فى الملمات ضاع هداه فى تلك الساعة أمام السلطانة وموت فاطمة وذلك المشهد الرهيب ، فقالت السلطانة : نعم هو هو بعينه قد عرفتهُ الآن ، وهو الذى ساعد سيده على خيانتى ، ثم سألته :

– أين بنت محمد باشا ؟ وماذا فعلت بها ...؟

فأجاب دون أن يرفع رأسه : قد ماتت . فصاحت السلطانة : كيف ماتت وهى فى زهرة شبابها ومقتبل عمرها وخطيبة صلاح الدين ؟

- نعم ماتت ، ولا أعرف كيف .

أما النساء الحاضرات فلم يفهمن شيئًا من هذا الحديث وكان علىّ يحدق بنظره إلينا ليعرف أين عائشة لأنه لم يرها إلا مرة ، وكان نقابها كثيفًا ، فلم يعرفها وكدنا نخلص من ذلك المركز الحرج وقد أملتُ أن كذبة أحمد تنجينا ، ولكن لا نصير إذا لم ينصر القدَرُ .

فإنه لما يئس من الحصول على نتيجة من أحمد تضايقت السلطانة وهمت بالخروج ، ولكن لم تصل الباب حتى كان السلطان قد أنفذ رجلاً خرَّب جميع ما بنيناه من الآمال ، فصاح الخصى :

- أهلاً وسهلاً بحسن بك تعال وانظر ما حصد الموت .

فانحنى حسن تسليمًا للسلطانة ، ثم قال : نعم عرفت الساعة بوفاة فاطمة هانم فهرولت مقدِّمًا خدماتى إلى عائشة هانم التى خان خطيبها عهدها ، فصاح صلاح الدين : يا للخيانة ، فقالت له والدته : مهلاً يا ولداهُ اسكت ريثما تعرف النتيجة . فلما رأيتُ وعائشة حسن بك عرفنا سوء المصير . ونظر إلينا أحمد نظر الأسيف البائس ووقفت السلطانة تنظر ماذا يكون ؟ فقال علىّ : إذًا كذب هذا الخائن بقوله إن عائشة قد ماتت ، فأجاب حسن : لا وألف لا ، فقد أكد لى بعض الجواسيس أنهم شاهدوها بالأمس فى هذا المكان وهى لا تزال حية ترزق . فتقدم الخصى إلى أحمد ولكمه بجمع يده قائلاً : أمَا ترى كذلك أيها الخائن الماكر ؟ فأجاب أحمد : لم أقل إلاَّ الحق .. فأجابه حسن بحنقٍ : كذبت وخسئت أين أخفيت عائشة قل أين هى الآن وإلاَّ قتلتك فى الحال ، وألقيتك فى السجن حيث تلاقى من أنواع العذاب أشكالاً وألوانًا ، فأجابه أحمد : افعل ما تشاء ، فلا أعرف أين هى . فضحك حسن وقال : إنى فى غنى عنك ، ثم تقدم إلى الباب ونادى امرأة فاقتربت وإذا بها سنية خادمتنا التى طردتها منذ مدة ،

فقال لها : تعالى وأخبرينى من هى مولاتك ومن هى عائشة ، فلما سمعت النساء الحاضرات هذا الكلام استولى عليهنَّ الرعب فانذعرن وانفلتن من كل جهة ، فحاولتُ الفرار وأمسكت بذراع عائشة لتتبعنى ، وإذا بالخادمة تقدمت إلينا وقالت مشيرة إلىَّ هذه نعمت هانم وهذه عائشة وراءها وللحال تقدم حسن إلى الباب ومنعنا من الخروج فصعد الدم إلى رأسى وكدت أتميز من الغيظ فصحت بصديقك : ابتعد يا خائن ، بأى حق تمنعنى عن الخروج ؟ فأجاب متظاهراً بالاحتشام : لا أريد هانم أفندى منعك بل منع الهانم التى معكِ .

فقلت : هذه ابنتى وخطيبة ابنى صلاح الدين بك وهى فى حماى ، والويل لمن يمسها ، فأجابنى الخصى : سهى عن بالكِ هانم أفندى أن سمو السلطانة مشرفة هذا المكان ، وأن عائشة هى ابنة إحدى جواريها ومن صلب زوجها محمد باشا ، فهى إذاً تخصها ، فقلت : ولكن ستصير زوجة لابنى ، فقاطعنى حسن الكلام ساخراً ستصير ولكن لم تصر بعد ، فمتى عاد صلاح الدين بالسلامة يمكنكِ طلبها من سموها إذا سمحت بها ؟

فقالت عائشة حينئذٍ : لا أريد الذهاب مع هذه السلطانة ، فقد خضبت يديها بدم والدتى ، فأجابها الخصى : هى جَنَتْ على نفسها بخيانتها . فصحت حينئذٍ : سيجزيكم اللّه على أعمالكم ، وشعرت من نفسى بقوة للنضال ولكن أنى لنا ذلك ونحن امرأتان مع عجوز ضد رجلين وقد تجمع خدم السلطانة فملأوا البيت لما سمعوا صياحنا ، فالتفتت السلطانة إلىَّ وقالت : تهديدك لا يفيدك ، ثم أدارت وجهها إلى الخدم وقالت : احملوا هذه الابنة فهجموا علينا كالذئاب الخاطفة ، وحاول أحمد إنقاذنا فأمسكوه وقيدوه ونزعوا من بين يدىَّ عائشة قهراً وجبراً وأنا أصيح ولا معين وأستغيث ولا مجير ، أخيراً خانتنى قواى فأغمى علىَّ ولم أعد أعى ما حدث ، ولكن

لما أفقت وصحوت من إغمائى وجدت نفسى وحيدة مع الميتة ، فاستولى علىَّ الرعب وقمت فى الحال مهرولة إلى الطريق مسرعة إلى الشاطئ ، وركبت كذات جنَّةٍ زورقًا حتى وصلت إلى اورطه كى . وتولانى الحزن والكآبة ، وذهب أبوك فى الغد إلى السراى يريد الاستئذان بالدخول على السلطان فلم يؤذن له وأشار عليه أصدقاؤه أن يترك المسألة ريثما تعود من غيبتك ، وزد على ذلك أن لا أحد يتجاسر الآن أن يشكو من حسن بك وهو نديم السلطان وشقيق السلطان مهرى التي امتلكت قلبه واستولت على لبه وهى الآمرة المطاعة . أما عائشة فقد تمكنت مع ذلك من الكتابة إلىَّ وهى التى أخبرتنى بأن أحمد مسجون فى أيك سراى جزاء أمانتهِ لمولاتهِ ، والذى أعرفه وأنا واثقة منه أن عائشة لا تزال على حبك وعهدك وبانتظار رجوعك ... ولكن فهمت أيضًا أن حسنًا سيقترن بها عن قريب جزاءَ خيانته ... هذا ما جرى فى أثناء غيابك يا ولداه ، وهذا هو السبب الذى من أجلهِ لم ترَ عائشة هذا المساء فى هذا المكان .

فالتفت حميد باشا والده وقال له : وماذا تقول فى هذا كله ؟ وماذا يحدث من جراء ذلك ؟

فأجاب صلاح : أقول إن قطرة واحدة تكفى أحيانًا لأن يفيض الكأس ، وأن عدالة الشعب يد قوية كافية لسحق الملوك وكؤوس مسراتهم وبطرهم ...

هى الدنيا تقول بملء فيها — حذارِ حذارِ من بطشى وفتكى

فلا يغرركم منى ابتسامٌ — فقولى مضحكٌ والفعل مبكى

* * *

(١٠)

ســـراى جـراغـان

إذا أراد القارئُ الكريم معرفة قدر هذا القصر العظيم وفخامته فليتمثّل قصرًا باذخًا عربى الهندسة مشيدًا على ضفة البوسفور قائمًا على ألوف من الأعمدة الرخامية منقوشًا أظرف نقش ، وحسبك أن قد بلغت نفقة بنائه مئة وخمسين مليونًا ، وقد اعتنى بفروشه وتزيينه أبرع مهندسى أوروبا وفرّاشيها .

ومنذ تولت السلطانة مهرى على فؤاد السلطان عبد العزيز زادت مصاريف الدولة وتجاوزت ميزانيتها الحد ، وحاول عبثًا كلٌّ من فؤاد وعالى ومدحت إقناع السلطان بالعدول عن ذلك البذخ المفرط والإسراف الزائد والالتفات إلى حاجات الدولة ومعدّات الجند واهبة الحرب ، فكانوا كمن ينفخ فى رماد أو يصرخ فى بطن واد، فإن أقلّ لفظة من إحدى محظيات السلطان كانت كافية لإنفاق القناطير المقنطرة من الأموال ، ورغبت مهرى فى تشييد قصر جديد يزرى فى بهائه وفخامته بسراى جراغان ، وقد أرادت بذلك أن تبرهن أن السلطانة الجديدة لا تقلُّ قيمةً عن السلطانات اللائى تقدمنها ، وأنها هى الآمرة المطاعة وسعت والدة السلطان فنجحت بإبعاد من عُرف بانتمائه إلى حزب المصلحين والأحرار وأبدلتهم برجال الحزب القديم المشهور بتعصبه وجهله . وهكذا أقصى من الوظائف جميع من كان من حزب تركيا الفتاة ، وكان واضعًا جلَّ آماله فى الوزراء الثلاثة المذكورين ، ولكن المنية داهمت لسوءِ بختهم فؤادًا وعاليًا ، فخسروا وخسرت الدولة بهم أعظم وزرائها وأقوى مساعديها .

ولما زارت الإمبراطورة أوجينى حرم السلطان فى جراغان ارتدت مهرى ثوبًا مزركشًا باللآلئ والجواهر ما تبلغ قيمته ستة ملايين حتى كانت تبهر الأنظار ، وكانت نساؤها وجواريها كذلك تتلألأ بالحجارة الكريمة كأن اللباس الظاهر يغشى ما هنَّ عليه من العبودية مع أنك لو سألت أية امرأةٍ أوروبية لفضلت الحرية على جميع زخرف

الشرق وبهائه ، كأن الشاعر الهونكارى عبّر عنهنّ بقوله : شيئان فى هذه الأرض يحببانى بالحياة . الحرية والحب . أفدى حبى بحياتى ، ولكن أضحيه من أجل حريتى . (وهذا هو الأصل الفرنسى) .

Deux choses lei - has me font aimer le jour :

La liberté, l'amour

Pour l'amour je donnerai ma vie,

Mais pour la liberté je donnerai l'amour.

وقد ترجمها أحد الشعراء العصريين صديقنا الدكتور چورچ أفندى صوايا فأجاد حيث قال :

شيئان فى الدنيا هما قد حببا لى ذى الحياة - الحب والحريّة

أفدى حياتى دون حبى إنما حبى فدى حريتى الشخصيّة

وجاءت الإمبراطورة أوجينى أولاً إلى سراى طلمه بغجه لزيارة والدة السلطان والسلطانة الأولى قرينته والدة نجله الأكبر يوسف عز الدين أفندى ، ومن ثم سارت إلى جراغان لزيارة السلطانة مهرى التى كانت نائلة حظوة السلطان ، فجاءت بقية السلطانات بنات عبد المجيد وغيرهن من العائلة السلطانية يستقبلنَ الإمبراطورة عندها وبمعيتها تزلفًا إليها واكتسابًا لرضاها ، وجاءت السلطانة عليّة وبمعيتها سراريها وبينهنّ عائشة هانم التى لما أبصرتها مهرى تقدمت إليها وأخذت تقبلها ناسيةً مقامها وسألتها كيف عادت فوقعت فى يد حماتها . أما عائشة فلم تردّ جوابًا ، وقد دُهشت لما شاهدت صديقتها القديمة فيما هى عليه من العز والفخر ، وفكرت بحالها وكيف مضى عليها سنتان تقاسى ألم فراق حبيبها تحت سلطة امرأة قاسية غليظة الفؤاد ، وكيف ساعد الحظ صديقتها فصارت سلطانة ونالت أكثر مما تمنت من الحب والعز والعلى والفخار ، وكيف تقلب الدهر فصيَّر الأمة سلطانة والحرة أمة .

وأخذت السلطانة مهرى يد صديقاتها وقادتها إلى غرفة مجاورة تستطلعها خبرها وما حدث لها ، فأخذت تقص عائشة على مسامعها ما جرى لها منذ نالت هى حظوة السلطان إلى آخر ما كان من شقيقها حسن بك ، فقالت مهرى : ولكن هذا السلوك عجيب من مثل حسن بك ، وقد بدأتُ أفهم الآن سبب صمته أخيراً لما كنت أسأله عنك وعن أحوالك ... أوّاهُ من الحب ... كيف يدفع الإنسان إلى ارتكاب المنكرات ، ولكن سامحيه يا عزيزة ، فهو لا شك يحبكِ كثيراً .

– ولكننى أقسمت يا ذات الجلالة ألا أكون عروساً إلا لصلاح الدين .

– إذاً لا تزالين على حبك .

– كحبك لجلالة السلطان .

– ثقى بأننى كنت جاهلة كل ما أتيته ، وإلا لما تأخرت البتة سعياً وراء إنقاذك ... ألم أنجيك قبل اليوم من على (الخصى) ... ولكن لِمَ لم تطلبى مقابلتى ...

– ليس الدنو منك من الهنات الهينات ، فالصعوبات والموانع أكثر مما تظنين وزيدى على ذلك العزة والأبهة ، فكيف يتسنى لجارية أسيرة مثلى الدنو إليكِ والاقتراب منك ، ولولا هذه الصدفة الخارقة العادة كزيارة سلطانة الفرنسيس لما أسعدنى الحظ بالتشرف برؤْيتك ؟

– ولكن صلاح الدين قد عاد الآن ، وسيفرغ جهده ، ولا شك فى استمالة رضا السلطانة ... فخفضى عنك يا عزيزة ، وثقى أن لك بى صديقة مخلصة وأنا التى قلت لنعمت هانم إن من الصعب أزواجك من صلاح الدين يومئذٍ حيث كان يعرّضكم جميعاً لانتقام السلطانة عليَّة ... فضلاً عن أن الخصى كان يتجسس والدة خطيبك ، وهى ولا شك كانت السبب فى شقائكِ على الرغم منها .

– لا مولاتى وألف لا .. حب نعمت هانم لا يقل عن حبها لابنها ووحيدها ، وقد أرادت أن تفدينى بروحها لو تمكنت من إنقاذى من يد الظلمة الطغاة ... ثم استدركت قولها فقالت من إيدى خدمة السلطانة ...

- ولكن الحمد للّه قد تيسرت لى رؤيتك فى هذا النهار .

- مولاتى أقبل قدميك ، وأرجوك أن تحننى قلب السلطانة علىَّ ... أنقذينى من عذابى لا تدعيهم يقسرونى على الزواج من حسن بك ... أنقذينى أنقذك اللّه من كل ضير .

وترامت عائشة على قدَمى مهرى تقبلهما ، فتأثرت الشركسية لما رأت صديقتها القديمة منطرحة بين قدميها ، فأنهضتها وطيبت خاطرها ووعدتها بالمساعدة ، فاطمأن فؤادها قليلاً .

وفى الساعة السادسة مساءً أقبل الزورق الخاص يتلألأ مقلاً الإمبراطورة ، فلما وصل إلى سلم سراى جراغان امتلأت النوافذ من السرارى يشاهدن تلك الزائرة العظيمة الغريبة . وهكذا تسنى لعائشة أن تشاهد من وراء ستار شفافٍ حبيبها صلاح الدين الذى كان بمعية الإمبراطورة ، وكان مرتديًا ثيابه الرسمية المذهبة يقدم برشاقة باريسية ذراعهُ للسيدات اللائى كن بمعية الإمبراطورة ، فلم تمتلك نفسها من البكاءِ لما شاهدت مليك فؤادها على بضعة خطوات منها وهو لا يمكنه مشاهدتها والدنو منها بين أن النساء الأوروبيات يكلمنه بحرية ويصافحنه ، فتنهدت من قلب قرحه الهوى ، وقالت : « آه يا ليتنى كنت أوروبية » ، وكان السلطان قد أعد للإمبراطورة مائدتين الأولى أوروبية محضة صحفها من معمل «سفر» الشهير ، ومناشفها من معمل «أساكس» ، وكؤوسها البلورية من «بوهيميا» ، والطعام على اختلاف الألوان والأشكال من الطبخ الإفرنسى ، وكانت المائدة الأخرى شرقية محضة مؤلَفة من أطباق كبيرة فضية منقوشة أبدع نقش موضوعة على «إسكملات» مرصعة بعرق اللؤلؤ والخوان من الحرير المقصب والصحف من ذهب خالص وحول الأطباق مساند مخملية مطرَّزة بالقصب ، فتقدمت السلطانة مهرى وخيَّرت الإمبراطورة بين المائدتين ، فاختارت الشرقية تلطفًا منها ورغبة فى معرفة الغريب ، وجلست وحاشيتها من حولها وراء الأطباق على الأرض ، وجلست السلطانات حول المائدة الأوروبية على الكراسى وقد سررن جميعهن مما أكلن وشربن ، ثم قامت الإمبراطورة إلى قاعة كبرى

تدخن التبغ التركى المعطر وتشاهد الرقص الشرقى وتسمع الغناء التركى ، وكانت البرنسس نازلى هانم كريمة المرحوم البرنس مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة ترجمانها وهى تحسن التكلم بأكثر اللغات الأوروبية .

وفى الساعة العاشرة دخل السلطان الحرم ، فهرعت السلطانات لتقبيل ثوبه ، وكان فى ذلك المساء بشوشًا طربًا ، وزاده سرورًا إطناب الإمبراطورة بكرمه وفخامة قصره وخصوصًا بجمال نسائه وحُسن ضيافته ، وأكثرت من مديح جمال السلطانة مهرى ، فأراد السلطان أن يرى الإمبراطورة أن مهرى لم تتميز بجمالها فقط ، بل إن الغناء من جملة محاسنها ، ومن ثم التفت إلى مهرى وطلب إليها أن تنشد فامتثلت للحال ، ولكن خانها صوتها لسوءِ حظها فى ذلك الوقت فلم تحسن الغناء ، ولربما كان ذلك من تأثرها أو لسبب آخر فلم يسر السلطان منها ، وشعرت هى باستيائه منها ، ورغبت فى التعويض فاستدعت صديقتها عائشة وكان صوتها مطربًا للغاية وطلبت إليها أن تنشد نشيداً عربيًا وأتتها باثنتى عشرة راقصة مصرية ، فطربت الإمبراطورة من اللحن العربى وسرت من رشاقة الرقص وعاد السلطان إلى بشاشته .

ثم أديرت القهوة والأشربة ، وقدر لعائشة إذ ذاك أن تقدم إلى السلطان فنجانه فحملت إليه الطبق الذهبى وجثت أمامه على قدم واحد وأمعن السلطان فيها النظر فإذا هى بارعة الجمال ، فأخذ الفنجان يشربه على مهل وهو يقلب فكره قائلاً إنى شاهدت هذا الوجه الفتان ، ولكن قد غاب عنى الزمان والمكان ، ولاحظت مهرى والسلطانة عليَّة افتتانه بجمال عائشة وانجذابه لها فذابت مهرى حسداً وغيرةً وطارت السلطانة عليَّة فرحًا وسروراً ، ثم أعاد السلطان الفنجان وشكرها خلافًا لعادته . وللحال عزمت مهرى أن تزوّج عائشة من صلاح الدين وتقصيها مع زوجها إلى إحدى الولايات لتبقى بعيدة عن أعين السلطان . وقالت السلطانة علية : الحمد للّه قد اجتذبت السلطان فتلك خير وسيلة للانتقام والحصول على الرضا والإنعام واستطالت مهرى تلك الحفلة ولا سيما لما رأت أن السلطان يكثر من الالتفات نحو عائشة ، فلما انتصف الليل قامت الإمبراطورة تريد الانصراف فشيعها

السلطان حتى زورقها ، ومن ثم ركب هو زورقه قاصداً ظلمه بغجه من غير أن يرى السلطانة مهرى ...

فقلقت مهرى ، وقالت على مسمع من السلطانة علية : نحن بالاسم سلطانات وبالفعل إماءُ ترفعنا لحظة وتسقطنا لفتة ، فطوبى للسلطانات الأوروبيات إذا لبسن التاج مرةً أمن عليه من السقوط ، فأجابتها : لا ، لا نزال نحن أسعد منهن حالاً . نعم إن سعادتنا تتوقف على رضا رجلٍ واحد لا يتبع إلا هواه ، ولكن الأوروبيات يتعلقن برضا الشعب كله ، فلم تفهم مهرى ماذا تريد بقولها ، ولم يؤَثر هذا الكلام بها . ولما انصرف الجميع كتبت إلى شقيقها حسن ما يأتى :

يا حسن يجب أن تحب شقيقتك وتضع سعادتها فوق هواك ، وأقول لك ذلك لأنك بصنيعك ستجلب ويلاً عظيماً .. أى سقوط مهرى العزيزة لديك ، فإن السلطان قد أكثر من الالتفات إلى عائشة ، وعليه فلا يصح أن يراها بعد الآن .. أفهمت صريحاً ؟ أريد أن تقترن عائشة فى الحال من صلاح الدين ، وغداً يتعين هو متصرفًا فى أحد الأقضية البعيدة ويُؤْمر بالسفر العاجل إلى مأموريته . هذه هى إرادتى وأمر شقيقتك .

(السلطانة مهرى)

ولما وصل السلطان إلى سراى طلمه بغجه استدعى خصيه الخاص ، وقال لهُ التقيت هذه الليلة بفتاة فتانة ، وهى التى شاهدتها فى طريق بيكلربك مرة أتتذكر ذلك ؟ فكيف هى فى السراى إذا كانت مخطوبة ؟

– نعم أذكر هذا وهى من أسرار علىّ خصى عمة جلالتك السلطانة عليَّة .

– وهل هى تخصها ؟

– نعم .

وإذا برئيس الخصيان دخل ينتظر أمر السلطان فأجابه لا أريد أحداً هذا المساء .. ثم قام إلى نافذة ، وجلس يفكر فى أمره ...

(١١)

عرس صلاح الدين

وكانت الأعياد والولائم تتوالى احتفالاً بالإمبراطورة أوجينى وصلاح الدين مضطراً لحضورها مقيداً بخدمة الإمبراطورة - الوجه منه باسم والقلب كسير . وفى ١٣ أكتوبر غادرت الإمبراطورة الآستانة شاخصة بالعز والإقبال إلى مصر لحضور افتتاح برزخ السويس ؛ حيث كان إسماعيل باشا خديوى مصر معداً لها ما أدهش العالم بأسره ، فطلب صلاح الدين رخصة شهر ، فنالها وحاز فى أى عمل يقضيه ، ورام أولاً الانتقام من صديقه حسن بك الذى خان عهدهُ ونكث ودَّه وأعاد مليكة فؤاده إلى حماتها ، لكنه رأى هذا عمل رعونة وجهل يجلب عليه وعلى والده الشيخ وآله أجمعين الويل والخراب ، ومن ثم حرمانه الدائم من خطيبته ، فرأى أن انتظاره خيرٌ وأبقى قائلاً رُبَّ صدفة خير من ميعاد ، ولم يعرف أن شراً أشد هولاً كان حائماً فوق رأس حبيبته .

وكانت عائشة هانم قد هرعت ، فبشرت نعمت هانم بما توقع لها وبحديثها مع السلطانة مهرى ووعدها باقترانها بابنها ، أما صلاح الدين فلم يصدق شيئًا من ذلك الفعل قال هذا كذب وخداع من الشركسية ، فأى خيرٍ ترجوه من إغاظة شقيقها حسن بك ؟!

ثم إن عائشة أنفذت فى ٦ أكتوبر رسولاً مخصوصًا إلى نعمت هانم تخبرها بأن السلطانة عليَّة قد وهبتها إلى السلطانة مهرى إجابة لطلبها ، وأنها ستنتقل إلى سراى جراغان ، فقال صلاح الدين : ومن يعلم ما طبخته لنا هذه الشركسية ، وإذا كانت لا تريد التعجيل بإزواجها من حسن بك . فقالت له والدته معترضةً ، ولكنها لم تصرِّح لها بألاَّ ترضى بسواك بعلاً ، فلا يجب يا بنىَّ إساءة الظن إلى هذا الحد واليأس من رحمة اللَّه ، ألا يكفى عائشة أنها تخلصت من نير تلك المرأة القاسية الغليظة القلب وأصبحت سعيدة آمنةً عند مولاةٍ لها تحبها وقد كانت صديقتها فيجب ألا تكفر

بالنعمة فإن الكفر يدعو إلى زوالها ، فاقتنع صلاح الدين بكلام والدته وسر كثيراً لما عرف أن السلطان قد أنفذ حسن بك إلى كريت بمهمة يقضيها ويضطرُّ بها إلى الإقامة فى تلك الجزيرة ستة أشهر . وطار فرحًا لما وصل إلى والدته فى ١٠ أكتوبر الكتاب الآتى :

هانم أفندى المحترمة

أنا الآن بمعية السلطانة مهرى تعاملنى كصديقة لا كجارية ، وقد سافر حسن بك إلى كريت متغيباً بمهمّة إلى مدة وقد وعدتنى جلالتها بالاقتران من ابنك المحبوب بعد برهة يسيرة ريثما تتغلب على جميع الموانع إذ لا يزال يظهر عوائق كما لا يخفاك . وقد أرتنى جلالتها أن أدعوكِ للمجىء إلى جراغان لمشاهدتك وتقبيل يدك . عائشة .

* * *

ولنترك الآن صلاح الدين يبنى قصور آماله ، ولنعد إلى حديثٍ جرى بين خصيين : الأول خاص بالسلطان عبد العزيز ، والثانى بالسلطانة عليَّة ، وكانا يتنزهان صباح يوم فى ظل أشجار البستان ، فقال الخصى علىّ سائلاً زميله : وهكذا قد حجزت كتاب السلطانة مهرى إلى شقيقتها وتظن أنك قد أحسنت سياسةً .

– لا شك عندى بذلك إذ لو كان يجب إطاعة هوى كل جارية تصير سلطانة أو غيرتها لتعذرت علينا المعيشة فى هذا المكان .

– أما سمو السلطانة عليَّة فقد سُرَّت كثيراً من هدية جلالة السلطانة مهرى وأدركت السبب ، وهو أن تتنازل لها عن جاريتها عائشة .

– نعم ولكن يدهشنى فى هذه المسألة طلب السلطانة مهرى أخذ عائشة إلى جراغان مع معرفتها بإعجاب السلطان بها .

– إذا كنت كتومًا للأسرار بحت لك بأمرٍ هامٍّ ، وهو أنه يجب عليك مراقبة السلطانة مهرى ، فقد سمعتها تتحدث همسًا مع مولاتى السلطانة عليَّة ، وكنت مختفيًا وراء ستار الباب فسمعت مهرى تقول : وهل أنتِ واثقة من أن هذا السم

يشوّه الوجه بدون أن يفتك بالحياة ؟ فأجابتها : أنا واثقة من الأول ، ولكن لا أكفل الحياة ، فقالت لها حينئذ السلطانة مهرى : لا بأس هذا يكفينى ، وإذا بعائشة دخلت فانقطع الحديث . فقال الخصى :

– أشكرك جداً لهذا الخبر ، ولكنى لا أصدق أن السلطانة مهرى تريد الموت لصديقتها .

– ولكن قد أصبحت الآن خصيمتها .

– أنت تُسيءُ الظن كثيراً بالنساءِ .

– لأنى قضيت حياتى معهنّ .

– عيشة رغيدة .

– وقد رأيت أعمالهنّ وحيلهنّ بعينى .

– ولكن يتراءى لى أنك كنت تكره عائشة قديمًا ، والآن تريد منى حمايتها من غدر السلطانة .

– أنا لست بكارهٍ ولا بمحبٍّ لها ، بل ككلب الصياد عليه متابعة طريدته ، فلما كانت مولاتى مطاردة لها أفرغت جهدى حتى وجدتها .

– أصبت هكذا يجب أن يكون الخادم الأمين . وافترق الخصيان عند هذا الكلام .

* * *

وجاءت نعمت هانم إلى جراغان فقابلتها عائشة مترحبة ولكن وجهها كان قد تورّم ، فشوّه جمالها فضمتها نعمت هانم إلى صدرها وعانقتها طويلاً ، ثم جاءت السلطانة مهرى متلطفة ، وقالت لها : يجب أن تستعدى لعرس صلاح الدين ، فقد زالت كل الموانع ...

ولكن لم يمضِ الأسبوع الأول حتى عيل صبر صلاح الدين ، وأخذ يلح على والدته بالزواج والعود إلى السراى لاستصحاب حبيبته . فسارت ووجدتها لسوء حظها بأسوأ حال لما تقاسى من ألم عينيها وقد تنفخت وملئ وجهها ورماً . وكانت عائشة حزينة حتى الموت من جراء ما أصاب وجهها من التشويه ، ولم ترغب فى مشاهدة حبيبها على تلك الحالة ، ولكن طمأنتها نعمت هانم كثيراً ، وأقنعتها بأن تلك بثور الصبا فلا تلبث حتى تزول تماماً ، فقالت عائشة : ولكن لا أريد أن يشاهدنى صلاح الدين على هذه الحالة خشية أن يصيبه ما أصاب السلطان . فقالت نعمت هانم : وما أصابه ؟ قالت : تنازل جلالته فدعانى لخدمته ذات يوم ، فلما شاهدنى أدار وجهه عنى اشمئزازاً ولا تسألى عما أصابنى من الغمّ والخجل ، وضحكت السلطانة مهرى من ذلك ، ولكن لو كان صلاح الدين عوضاً عن السُّلطان لمتُّ فى الحال حزناً وغماً . فأخذت نعمت هانم تطيب خاطرها وتخفف عنها استياءَها ، وقالت : إننا ننتظر إبلالك وشفاءك حتى يعود جمالك وهو عائدٌ قريباً إن شاء اللّه .

ومنذ أظهر السلطان اشمئزازه من عائشة أخذت مهرى تضاعف اعتناءَها بها وسعت بتعيين صلاح الدين متصرفاً فسمى على سالونيك وأعطى ألف جنيه مهراً لامرأته .

ولم ينتشر هذا الخبر بين أصحاب صلاح الدين ومعارفه حتى جاءُوا يهنئونه من كل صوب على تلك الحظوة لأن التزوج من إحدى سرارى السراى يعدُّ التفاتاً عالياً كما لا يخفى . ولكن المرض كان يزداد على عائشة وهى تزداد رفضاً للزواج . أما صلاح الدين فقد ذابت الروح منه اشتياقاً ونفدت جعبة صبره من الانتظار ، وظنّ أن تمنُّع عائشة هو غنج ودلال على حد قول الشاعر : (عرف الحبيب مقامه فتدللا) . فأنفذ والدته تطلب عائشة لاصطحابها معها إلى حرمها تتمرض فيها ريثما تنال الشفاء التام ، فسارت إلى السراى وتمكنت من إقناع عائشة بأن مناخ مدينة سالونيك يُعجل شفاءَها فرضيت وقد اشترطت ألاَّ يشاهدها صلاح الدين إلا بعد شفائها .

وأذنت السلطانة مهرى بذلك فشكرتها عائشة كثيراً ، ودعت لها طويلاً قائلة : جازاك اللّه عنى جزاء عملكِ معى ... وأفضالك علىّ ... فارتعشت مهرى من هذا الدعاء ... وخافت سوءَ العاقبة وإجابة الطلب .

وسر صلاح الدين من وجود حبيبته تحت سقف بيته ، وإنما ساءَه تحجبها الشديد عنه طول مدة إقامتها ، فدخل ذات يوم على والدته غاضبًا وألقى طربوشه على الديوان وقال :

– أأنت مؤكدة يا أماه من أن عائشة تحبنى بعد الآن ؟

– ما هذا السؤال يا صلاح الدين ، وهل أنت فى ريبة من ذلك ؟

– نعم فقد بدأت أشكُّ بحبها إذ ما معنى ذلك التأجيل ، فإن العرس كان منتهى آمالها وقد حالت دونه الموانع الكثيرة ، فماذا تريد من هذا الانتظار الآن سوى رجوع حسن بك حتى نعود إلى ما كنا عليه ، ناهيك عن أنى لا يسعنى بعد احتمال هذه المعيشة ، أأراها تحت سقف بيتى وأسمع كل يوم صوتها ولا أقدر أن أمتع نظرى بمحياها لقد عيل صبرى ؟! فبلغيها أنه لا يبعد إذا كلمتنى مرة من وراء الباب كعادتها أن أحطمه وأدخل عليها ناسيًا حقوق الضيافة وقداسة الشرائع والعوائد .

– ولكن قد تغيرت المسكينة كثيراً .

– وماذا يهمنى ؟ ذلك نفاطٌ يزول قريبًا كما أكد لى جميع الأطباء ، وهل يجوز تأجيل هذا العرس من أجل غنج فتاة معجبة بجمالها ؟ فإنى أحبها وتحبنى وكفى تأجيل فأكدى لها ذلك وأقنعيها أن هذا الامتناع من قلبها يخفف حبى لها ، وأنى لست بغرٍّ لأعلق كبير أهمية على مثل تلك المسائل التافهة .

ونقلت نعمت هانم حديث ابنها إلى عائشة فخافت من وعيد حبيبها وهجرها فرضيت بما طلب وبمباشرة احتفال العرس ، وطار قلب صلاح الدين فرحًا ، ونسى السياسة والأحزاب والإصلاح وغفر ما كان للسلطان من الذنوب والمعائب ولا غرابة فعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ .

وضربوا موعداً للاحتفال بمراسم العرس ١٥ ديسمبر ، فاكتظ البيت بالمهنئين والمهنئات ، وكان حميد باشا الذى رافق ابنه إلى سالونيك يستقبل فى السلاملك وفود المهنئين ونعمت هانم تستقبل النساء اللائى كنَّ يساعدنها على تزيين عائشة المسكينة فألبستها ثوبًا حريريًا ناصع البياض مطرزًا بالقصب وأسبلن قناعًا طويلاً على وجهها وأديرت المرطبات والحلويات وتمت جميع الطقوس والعوائد الجارية فى تلك البلاد ، ولما كانت العادة كما لا يخفى أن يدخل العريس ويقود عروسه إلى الغرفة المعدة لهما دُعى صلاح من السلاملك للدخول إلى الحرم فقام وقلبه مفعم فرحًا ولما قَدَّم إليها يده قال لها همسًا : الحمد للّه أنتِ لى منذ الآن ؟ فقالت لهُ عائشة بصوت مرتجف : وهل تبقى على حبك ؟ فأجابها : إلى آخر نسمة من حياتى . فقالت : إذًا وقد أمر اللّه تعالى بذلك فاكشف قناعى فمدَّ صلاح الدين يده بلهفة ورفع القناع وهمَّ بتقبيلها ، فلما شاهد وجه حبيبته على تلك الحالة من التشويه نَفَر منها وصاح مذعوراً وقد غطَّى وجهه بكلتا يديه أهكذا أُعطيت لى ؟ فكاد الغمُّ يخنق عائشة فتقدمت إلى حبيبها وقالت له : ألا تريد أن تقبل عائشة المسكينة ؟ فرفع صلاح الدين وجهه يريد تقبيلها ولكن لما شاهد البثور والندوب فى وجهها لم يقدر أن يملك نفسه من التردد والاشمئزاز وخاف أن يسوؤها فأراد إصلاح خطأه ولكن هيهات فإن عائشة لما رأت ذلك النفور من حبيبها ركضت إلى النافذة وألقت بنفسها إلى البحر قائلة : لا أكون لك عروسًا بلا حب . وهبَّ صلاح الدين يريد مسكها ومنعها ، فلم يتمكن إلاَّ من مشاهدة جثة حبيبته تخبط فى اليمّ .

فصاح صيحة تراكضت لها النساءُ فوجدنه يحاول إلقاء نفسه فى البحر فأمسكنه وتعلقن به وهو يحاول التملص من أيديهنَّ جاحظ العينين ضائع الهدى والنساءُ يصرخن ويستغثن وإذ بيدٍ من حديد قبضت على صلاح الدين وصوت يقول له : هذه ساعة الرجولة فإن عائشة كانت مائتة لا محالة أن غبار الماس سمَّ الاستانة هو سبب هلاكها فيجب أن تعيش لتأخذ بثأرها وهذا رجاء والدتك إليك ودعاء عائشة أيضًا . كان ذلك الصوت صوت والدته فانتبه صلاح الدين لهذا الكلام كمن أفيق من سبات عميق وقال : حقا نطقت .. وصدقًا قلت .

(١٢)

تعيين محمود باشا خلفًا لعالى باشا

من أصعب الأمور على رجل عادى أن يخلف رجلاً عظيمًا اشتهر بسموّ الأفكار وتوقد الذهن والدهاء السياسى فى منصبه ، وهكذا صعب على محمود باشا الذى ولاَّهُ السلطان عبد العزيز الصدارة العظمى خلفًا لذلك الوزير الخطير الذى هيهات أن يأتى الزمان بمثله فى تركيا . وقد تبوأ محمود باشا منصة ذلك المنصب الرفيع ، ولم ينظر إلى عواقبه ونتائجه ؛ لأن فخامته كان من مذهب القائلين : « ومن بعدى الطوفان » لا همَّ له إلاّ ملء كيسه وزيادة ثروته ، ومن ثم اكتساب ثقة السلطان ورضا حاشيته ، ولم يكن يقدر لغيرهم قدراً ، بل لم يكن يهمه أحد ما دام السلطان الآمر المستبدّ . وكان حزب تركيا الفتاة يحرق الإرم لدى كل مظلمة وعند كل قرض وعلى الأخص لما شرع الصدر باضطهاد رجاله ، فنفى منهم كثيراً وعزل جميع المأمورين الذين اتهموا بالانتماء إلى الحرية والإصلاح . وبدأت زوبعة تلك الثورة بإلغاء الجرائد وتقييد الأقلام والضغط على الأفكار ، وكان الكدر يتعاظم ويشتدُّ ، ولكنه كان كالنار كامنًا تحت الرماد .

هكذا كانت حالة تركيا فى أواخر عهد السلطان عبد العزيز فى صدارة محمود باشا ، وكان سفير روسيا شديد التمسك به رغماً عن مقاومة الوزراء له، فتمكن بدهائه من إقناع السلطان بأنهُ الوزير الوحيد فى تركيا الذى يوافق بقاؤُه حرصًا على تركيا وحفظًا لصوالحها ، وكانت روسيا مشاهدة بأن كل سنة من صدارة محمود باشا تنقص خمسين عامًا من عمر تلك الدولة التى طالما تمنَّت وحاولت ابتلاعها وبعد أن كانت أحوال الدولة قد تحسنت فى بداءَة عهد السلطان عادت فسقطت وانحط اسمها ومقامها فى أوروبا واضطرمت نيران الثورة فى أنحائها . ولم يكن الصدر الأعظم المذكور معتمداً على سفير روسيا فى الآستانة فقط بل على الحرم السلطانى أيضًا ، لأنه كان متزوجًا من شقيقة السلطان عبد العزيز نفسه ، وكانت كلما مرَّت الأيام تزداد

الأحوال سوءاً فصارت تركيا على شفيرها والسلطان محتجب لا يخرج من سرايه إلاَّ كل جمعة للصلاة فى جامع طلمه بغجه المحاذى لقصره ، ويخرج فى المساء فيختبئ فى إحدى مقصورات بستانه يقتل الوقت ويزيل السآمة بشرب العرق ومسامرة الندماء ، ففى مساء يوم الجمعة « ٢٦ أبريل ١٨٧٦ » طلب الصدر الأعظم من السلطان الدخول عليه ، وكانت قد تغيَّرت سحنته كثيراً واشتد سمنه وشاب مفرقهُ ، واستولت عليه الكآبة وخامرهُ سوء الظنّ والريبة بمن كان يقرب منه ، فلما وجد محمود باشا مولاهُ على تلك الحالة من الضجر والقلق أخذ يحاول تسليته وترويح فؤاده فيسرد على مسامعه النكات الظريفة والفكاهات اللطيفة وهو يائس لا يلذ له شىءٌ ، وكان السلطان مغرمًا فى مشاهدة مقاتلة الديوك فصار يكرهها ، وأخيراً تجاسر الصدر الأعظم ، فقال لمولاه مخاطبًا :

– أى مولاى لِمَ تسئ الظن إلى هذا الحد برعيتك ؟ فقد أرسل إلىّ ناظر الشرطة هذا الصباح تقريره مبشراً بأن الأمن فى غاية ما يكون من الاستتباب والراحة شاملة جميع طبقات الرعية الداعية لك بالتأييد والنصر ، ومع ذلك فإن جلالتك لا تخرج من القصر إلا نادراً محتاطًا بالجنود محترسًا متحفظًا .

فأجابه السلطان : ومع ذلك ألا يوجد إلاَّ هم لحماية سلطانهم عند الشدة ؟

– لِمَ يا مولاى هذه الأفكار والهواجس ؟ ألا تعلم أنك أعظم سلطان تنسم عرش آل عثمان ...؟ روسيا عدوّتنا اللدودة قد انقلبت تتزلف إلينا ودانت لنا صاغرة ... هذه الآستانة قاعدة السلطنة صارت تضاهى أعظم عواصم أوروبا ... ها أوروبا قد أصبحت بأجمعها تتزاحم لاكتساب رضانا ، فهل تريد من مزيد يا مولاى ؟

فانتصب السلطان واقفًا عند سماعه هذا الكلام ، وقال : أنت خادم أمين يا محمود ، وتريد أن تخفف قلقى واضطرابى ، ولكن هل تخالنى جاهلاً أن عدوى فى بلادى نفسها ، وأن حزب تركيا الفتاة يترقب وفاتي لتنصيب مراد ابن أخى ؟

فقال الصدر بهيئة الساخر : ولكن يا مولاى أنت تقدّر لهذا الحزب أهمية كبرى وهو لا يزال فى مهد الطفولية ، ولا بد أن ينتظر طويلاً إذا كانت هذه أمانيه وما دمت أنا فى الصدارة ، فسأستأصل شأفتهم إن شاء اللّه وأجعلنهم عبرةً لمن اعتبر، فصمت السلطان عند هذا الكلام وأظهر ارتياحهُ إليه ، لكنهُ قام فى الغرفة يتمشى ذهابًا وإيابًا كالأسد فى عرينه ، ثم قال : وليس هذا الحزب سبب قلقى واهتمامى الوحيد ، فإن السلطانة وهواجسها شاغلة أفكارى ، فإن قلبها يحدثها منذ أيام بدنوّ شرٍ أو مصاب كبير قريب ، فقال الصدر : ولكن يا مولاى أظن أن حملها هو السبب فى هذه الأفكار والأوهام وقد عرفت ذلك من زوجتى ، فأجاب السلطان : لا يا محمود ليس الأمر كذلك ، فأنا أعلم الناس بمهرى وطباعها ، فهى ليست قط من النساء الجبناء اللائى يتطيرنَ من الحوادث والصدف ويتشاءمنَ من الأخبار ويصدّقنَ خرافات العرافات ، ولكن قد تسبب كل هذا القلق منذ وفاة عمتى السلطانة عليّة ، وكانت وفاتها لسوء الحظ فجأة وفى الحرم عند مهرى فإنها بينما كانت تضحك وتهزل كعادتها وإذا بها قطبت حاجبيها وحملقت بنظرها ثم صاحت مذعورة ، وقالت : إن جارية وأمها كانتا عندها وقد تُوفّيت الأولى بعد الأخرى بست عشرة سنة ، وجاءت تختطف روحها فخافت وانذعرت وأخذت تستغيث وتصرخ وخافت السلطانات الحاضرات وظننَّ أنها قد مُسَّت بعارض من الجنون وبقيت عمتى المسكينة تصيح عائشة ... إقبال ... (وهما اسما جاريتيها) أرجوكما ... ابعدا ... لا تقربا ... الدم ... الدم .. النطع .. وغير ذلك من العبارات المتقطعة وعيناها جاحظتان وقد انتفش شعرها وضاع صوابها ، وكلما اقترب منها أحد صاحت لا لا ابعد .. خنقونى .. قتلونى ... فقد فتحوا قبرى ، ثم نظرت إلى مهرى أخيراً وحملقت فيها بنظرها وصاحت بها ..

الحذر يا مهرى . إن دورك قريب .. فأغمى على مهرى عند سماعها هذا الكلام ولبثت عمتى المسكينة على تلك الحالة وهى تتمرّغ على الأرض وسلمت روحها قائلة : قد اختطفها عزرائيل .

فتأثر الصدر عندَ سماعه هذه الحادثة ، وقال : حقًا إن تلك ميتة غريبة . فقال السلطان وتراكض الأطباء من كل جانب ، فوجدوا جثة بلا روح ، وحكموا أن سبب الوفاة انفجار شرايين القلب عقب نوبة عصبية هائلة ... وقد مرّ يا محمود على تلك الحادثة ثلاثة أشهر ولا تزال مرسومة لحد الآن فى مخيلة مهرى تتمثلها آناء الليل وأطراف النهار وهى لا تجسر على النوم فى الليل وقد تولاها السهاد ولا تتجرأُ على البقاء وحدها فى غرفة النهار ، فرغّبت إليها أن تذهب أين شاءت لتبديل الهواء ، فلم ترضَ وجوابها الوحيد أن خطرًا يتهددنى ، وأنها لا تريد أن تفارقنى ، فقال الصدر : ولا شك أن جلالتك قد تأثرت من تلك الحادثة الغريبة ، ولكن يخشى من عدوى تلك الأفكار والوساوس إلى عظمتك . فقال السلطان : بلى وأنا أخشى ذلك أيضًا ، وهذا سبب قلقى وعلة اضطرابى . قال الصدر : إذًا أرى من الحكمة الابتعاد عن الحرم ، فهذا خير علاجٍ ، فأجاب السلطان متنهداً : وهذا هو السبب فى كدرى ، فإنى أشرب هذا الشراب المحرَّم تبديداً لتلك الأفكار السوداء ...

بينما هما كذلك ، وإذا بأحد الحجاب استأذن بالدخول على السلطان لعرض غرض مهم فأذن لهُ السلطان فى الحال وقد قلق وإذا هو حسن بك شقيق مهرى قد دخل على السلطان أصفر الوجه غير مرتب الثياب ، فسألهُ السلطان بلهفة : ما وراءك يا حسن ؟ أأصاب مهرى شرٌّ ؟

وارتجف الصدر عند رؤيتهِ حسن بك داخلاً على تلك الحالة ، فقال : أعوذ باللّه خبر الشراكسة . فأجاب : حسن لا يا مولاى ، ليت على مهرى كان قلقى فهو على راحة جلالتك .. إنى يا مولاى قادم من إستانبول .. حيث يتآمرون على جلالتك . فالتفت السلطان إلى الصدر ، وقال له : أرأيت ... وسمعت ..؟ فأجاب الصدر مقاطعًا حسن بك : ولكن هذا بعيد بك أفندى إن لم يكن مستحيلاً ، فصاح حسن بك : كيف هو بعيد ومستحيلٌ وأنا أقول لك : إنى قادم منها وقد حضرت ساعة المؤامرة من بدئها إلى آخرها وأنا أرتجف حنقًا وغيظًا وقد أنهكنى التعب . فقال له السلطان :

اجلس واسترح قليلاً وقل ما تشاءُ . فقال : أعداؤك يا مولاى لا يحصون ، وهم يتآمرون عليك فى المجالس الخصوصية والمحافل الماسونية والجوامع ...

فصاح السلطان مذعوراً ... فى الجوامع ...؟ نعم فى الجوامع ، أجاب حسن بك ، فاعترض الصدر قائلاً : لا صحة لهذا القول ، فإن لى جواسيس بين الماسون والمأمورين والسقطاء وهم أمناءُ ولا تخفى عليهم خافية فقال ، فقال حسن بك : ربما أن جواسيسك هم أيضًا جواسيس تركيا الفتاه ، وإنما يقبضون منك رواتبهم ، فقال الصدر : فإذًا أنت يابك تشك بصدق عبوديتى أمام جلالته . فانتهرهُ السلطان قائلاً : دعه يا محمود يتكلم ...

فقال حسن : أستأْذن من جلالتك بأن أعرض التفاصيل على المسامع العالية ؛ لأنها واجبة جلاءً للحادثة ، وأرجو فخامة الصدر ألاَّ يشك بصدق عرضى ، فقال له السلطان : قل ما تريد . فشرع حسن يقصُّ ما رأى ، فقال : مولاى مررت هذا المساء بجامع شاه زاده باشى فعرجت للصلاة فوجدته مكتظًا بألوف من المصلين وقد تجمع أكثرهم حول الميضأة يتوضأُون فانتظرت ريثما جاءت نوبتى على أننى فيما كنت منتظراً رأيت إمامًا يتقدم متظاهراً بتفقد المياه فيقترب من البعض فيلمس أكتافهم بخفة ، وكان يجيبه الكثيرون برفع أيديهم اليسرى إلى جبهتهم دون أن يلتفتوا إليه ، فلم أعبأ لأول وهلة بتلك الإشارة ، ولكنى لما شاهدتها تكررت ، قلت فى نفسى تلك إشارة التعارف فلا بدَّ لى من الوقوف على دخيلة المسألة فتقدمت للوضوء ، وإذا بالإمام المذكور تقدم إلىَّ ولمس كتفى بحجة افتقاد الماء فأعطيت الإشارة فتقدم حينئذ إلى أذنى وهمس قائلاً : هذه الكلمات الثلاث « *الليلة بعد الصلاة* » ، وابتعد معيداً تلك الإشارة ومكرراً تلك العبارة . فدخلت الجامع وقد غص بالمصلين وأنا قلق مما سيكون على أن الأنوار كانت لحسن الحظِّ ضعيفة وقد خفت أن يعرفنى أحد فنكست طربوشى على عينى وانزويت جانبًا دفعًا لكل ريبة ، ولما فرغت الصلاة خرج البعض وبقى الأكثر وللحال أُقفلت أبواب الجامع وشرع الأئمة والمشايخ والسقطاءُ يتفاوضون همسًا بما لم أسمعه ، وأخذ يرقى المنبر كل بعد الآخر وعوضًا عن الاستشهاد بالآيات

القرآنية كانوا يحثون الناس على المناداة بالحرية وإطلاق الجرائد من قيود المراقبة الصارمة وتحطيم سلاسل العبودية قائلين : يجب على السلطان أن يخضع لإرادة الشعب ، وأن يعجل بإجابته إلى مطالبه حفظًا للدولة وصونًا للملة والأمة كى تعود المملكة إلى مركزها القديم وتلحق بالدول الأوروبية العزيزة ، وقالوا : إن ولاياتنا متسعة الأطراف ممتدة إلى جميع جهات القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وأرضنا أخصب أرض اللّه وأغناها . نملك خمسة أبحر ونسود ثلاثين أمة مختلفة ... ولكن لِمَ نحن فى مؤخرة الشعوب ؟ ولِمَ ماليتنا فى عجز ومقامنا فى انحطاط..؟ كل هذا لأن اليد القابضة على زمام المملكة لم تحسن إدارتها .

هذه يا مولاى قحة منهم لم يسبقهم إليها أحد ، فقد دفعهم الجنون حتى إلى التطاول على أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ... أما أنا فكنت أحرق الإرم غيظًا ، ولكننى كنت عاجزًا عن الدفاع والانتقام من أولئك الخطباء الفجّار ، وكان يزداد غيظي خصوصًا لما كنت أرى السامعين يقابلونهم بمزيد الاستحسان وقد انتهت تلك الجلسة التى تمكنت فيها من معرفة جميع أعداء جلالتك وهم ليسوا بقلائل وقد استلفت نظرى خصوصًا واحدٌ امتاز عن الجميع بحدة لهجته وشدة عداوته ، فقال الصدر : وما اسمهُ ؟ فتردّد حسن فى الجواب ، ثم قال : لا يمكننى إباحة اسمه الآن ، ولكن إذا قبضت على المؤتمرين كان هو فى طليعتهم .

وكان السلطان غائصًا فى بحار التأملات ، فلم يفهم سؤال الصدر ولا جواب حسن ، فلما صمت حسن بك انتبه السلطان فقال : وهل هذا كل ما رأيت ؟ فأجاب : نعم ، ثم بعد أن فرغ الجميع من الكلام فتحت الأبواب فخرجت مسرعًا وفكرت أولاً فى الذهاب إلى نظارة الشرطة ، ولكنى عدت فعدلت وقلت الأولى أن أعرض المسألة على مسامع جلالتك رأسًا .

فالتفت السلطان إلى الصدر ، وقال له ساخراً : أرأيت هذا الأمن العظيم ؟ ها هم يتجاسرون على ذمى وثلبى فى قلب بلادى وداخل عاصمتى ، فكيف يفعلون فى الخارج ؟ فحار الصدر فى الجواب وتلجلج لسانه رعبًا ، ثم قال : مولاى أخذت على نفسى مسئولية ما يحدث فى المملكة وتعهدت لجلالتك بدفع كل شر تخشاه من أعدائك ما دمت فى الصدارة العظمى وعليه أتعهد لجلالتك الآن أنه لا يأتى الغد إلاً وقد تشتت أولئك الشبان فى أقاصى البلاد ، فإنى أرى فى ثورة الهرسك حجة سديدة لإبعادهم فسأنظم من هؤلاء الأحرار جيشًا وأدفعهم إلى ساحة الحرب ، حيث يتجرعون كأس حتفهم لا محالة فدية عن وطنهم ، وهكذا نتخلص من شرّهم . فوافق السلطان على هذا الرأى فقال حسن بك : يا مولاى إذا أمهل الانتقام أخطأ الغرض ، فأجاب الصدر : دم الشباب يغلى فى صدر حسن بك وهو يجهل ولا شك المثل العربى القائل : من تأنّى نال ما تمنى . فقال السلطان : اليوم خمر وغداً أمر ، ثم أمر بترقية حسن بك إلى رتبة ياور أول لكبير أنجاله يوسف عز الدين أفندى ، وأنعم عليه بالوسام المجيدى جزاء اجتهاده ، ثم فكر قليلاً وهزَّ رأسه قائلاً : بدأت مخاوف مهرى تتحقق . وقلق السلطان جداً لما شاهد أحد ياورى وزير الحرب قادمًا بسرعة نحو السراى ، كأنه ناقل خبراً خطيراً وقبل أن يستأذن الياور بالدخول أمر هو بذلك فدخل للحال ولما عرفه حسن بك أنه صلاح الدين انتفض لمرآه واحتجب وراء الستار كى لا يقع نظره عليه ، وقال فى نفسه : لا بد من خبر شؤم وإلاً لما نقله صلاح الدين بك . فقال السلطان : ما وراءك ...؟ فانحنى صلاح الدين إلى الأرض تعظيمًا ، وقال : لدىَّ هذه الرسالة البرقية من درويش باشا ، ثم قدَّمها للصدر وهذا رفعها إلى السلطان ، فلم يقع نظره عليها حتى تقطب حاجباه وأكمد وجهه وبقى صلاح الدين رابط الجأش تقدح عيناه شرراً حقداً وانتقامًا ، ثم أشار إليه السلطان بالانصراف فقفل راجعًا حتى غاب عن

الأنظار فتقدم حسن حينئذ وتلا الرسالة ، وإذا هى من قومندان الجيش من ساحة الحرب ، وهذه صورتها :

موستار ١٥ أفريل ٧٦ (محرمانه خصوصى)

احتاطت بى جيوش الثورة ، فاضطررت أن أعود القهقرى بعد أن خسرت ستمائة جندى وثمانية مدافع ، أما خسارة الأعداء فقليلة عجلوا بإمدادى بالمال والزاد ...

درويش

فصاح الصدر فرحًا : إن درويش باشا يطلب نجدة فحبًا وكرامة وسأنفذ له غدًا نخبة رجال تركيا الفتاة لأرى هل يحسنون عقد المؤامرات ... ونشرت الجرائد المحلية هذه الرسالة ، وعُلقت على جدران المدينة بعد أن حوّرت قليلاً كما سيرى القارئ فصارت هكذا :

موستار فى ١٥ أفريل

دحرت الثوار فعادوا بالفشل بعد خسائر جسيمة ، واستشهد من رجالنا ستة بعد أن غنمنا زادًا وافرًا وذخيرة كثيرة .

درويش

فطار السُذج لهذا الخبر فرحًا وسرورًا ، وصاحوا ليحيَا السلطان ، أما الذين كانوا يعرفون حقائق الأمور فأخذوا يتساءلون قائلين : « تلك أعجوبة آخر زمان كلما ظفرنا فى معركة هبطت أوراقنا المالية » ، فقال البعض هذا يسمونه فى تركيا نشر الأخبار الحقيقية ...

* * *

(١٣)

مقـــدمة الثـــورة

بينما كانت الكتائب والفيالق تزحف من الولايات لإخماد ثورة البوسنة والهرسك كانت الاجتماعات السرية تتوالى فى الآستانة ليلاً ، ثم عدل المتآمرون عن الاحتجاب وراء ستار الليل والتعارف بالإشارات ، وأخذوا يجاهرون فأفكارهم فى المحافل والجوامع ، وخشى بقية السكان من غير المسلمين فى الآستانة من تلك المظاهرات التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ تركيا ، واشتد قلقهم كثيراً ، وكان السفطاء والأئمة يطيبون خواطرهم ويهدئون روعهم مؤكدين لهم أنهم لا يريدون بأحد شراً ، وإنما غايتهم تغيير الأحكام الجائرة بإصلاحات عادلة .

وقلق السفراء أيضًا ، فجاءُوا الصدارة يستعلمون عن سبب تلك الاجتماعات ، ويندون بما لها من العواقب الوخيمة ، فكان الصدر يجيبهم لا تخشوا شيئًا ، فهى مؤامرة على الحكومة فقط ، فلم يهدأ بال الأوروبيين لهذا الكلام ، وأخذوا يرحلون أفواجًا أفواجًا ، وكان محمود باشا عارفًا بأن سخط الأهالى عليه عظيم، وأنهم يريدون عزله وعزل شيخ الإسلام معهُ ، وعرف الوزراء الباقون ذلك فالتمسوا من السلطان أن يبدل الصدر إرضاء للرأى العام الهائج ، ولكن الصدر كان قد تمكَّن من إقناع السلطان بأنه إذا أقصاه وضع نفسه فى أيدى أعدائه ، وأصبحت حياته من ثم فى خطر ، فزاد السلطان به تمسكًا وثقةً ، وكان سفير روسيا أشد عضدٍ لهُ يشجعه على الثبات والاعتقاد بهِ ، وكانت سياسته هذه خشية من فقدان ثمرة أتعابه التى كان يعانيها منذ عشر سنوات وهى تعجيل انحلال تركيا وكانت الثورات قد هبَّت من كل جهة لتقرض تركيا وتنخر عظامها بسرعة ، وكانت ثورة واحدة فى الآستانة يذبح فيها بعض المسيحيين كافية لأن تتخذها روسيا حجة للزحف على تركيا بدعوى أنها حامية نصارى الشرق ، وكانت الألسنة تلهج فى جميع المحافل النصرانية يومئذ بأن الدولة

الصديقة لتركيا على أهبة تامة من الزحف على الآستانة لترفع علمها فوق مآذن جامع أجيا صوفيا .

وهذا ما حدا بالسفطاء والأئمة والعلماء للقيام والسعي تغييراً لتلك الأفكار ، وقد أرادوا أن يضطروا حكومتهم إلى انتهاج سياسة جديدة وإجراء إصلاحات عامة ، وكانت روسيا معاكسة لكل إصلاح حقيقي عدوة لكل نهضة وقد نجحت فألفت لنفسها حزبًا عُرِفَ يومئذٍ بالحزب الروسي تحت رئاسة الصدر الأعظم محمود باشا الذي لُقِّب باسم «محمودوف» ، وكان معاكسًا لهُ حزب تركيا الفتاة ، وكان يرأس هذا مدحت باشا وحسين عوني باشا ورديف باشا ، وكانت غايتهم إنهاض الدولة وحفظها من السقوط غنيمة باردة بين مخالب الدب الأبيض ...

وهكذا بقيت تلك الأزمة تشتد يومًا بعد آخر والأخبار تتوالى متناقضة والأفكار قلقة حائرة وقد توقفت الأشغال وتعطلت التجارة ، ثم نقل البرق في ٧ أيار سنة ١٨٧٦ خبر ذبح قنصلي فرنسا وروسيا في سالونيك ، واتهم الناس الحكومة التركية بمشاركة الذابحين . فقامت أوروبا لهذا النبأ وقعدت ، وكان سبب تلك المذبحة أن امرأة بلغارية كانت قد اعتنقت الإسلام ، لكنها لم تلبث طويلاً حتى ثقل عليها الاحتجاب ولم تطق معيشة الحرَم فعادت إلى سالونيك ملتجئة إلى قنصل روسيا وعرف بعض الإروام موعد وصولها فساروا إلى المحطة للقائها وأنفذت الحكومة نفراً من الشرطة أيضًا ، فلما وصلت وكانت لا تزال على الزي الإسلامي أراد الشرطة أن يقودوها إلى الإمام لتنزع عنده رداءها وتقرَّ أمامه بارتدادها فعارضهم الإروام وانتزعوها قوةً واقتداراً من بين أيديهم وحملوها إلى دار رجل من ذوي قرباها بلغاري الأصل ، وكان أيضًا وكيلاً لدولتي روسيا وأمريكا فجرح في تلك المناوشة عند المحطة بعض الأتراك البلغاريين ، وطار الخبر في المدينة فاستولى على سكانها القلق والجزع ، وبلغ الهياج حدًا عظيمًا بين المسلمين الذين قاموا يطالبون بالمرأة البلغارية بحجة أنها لا يحق لها سكنى بيت مسيحي ما دامت لم تنزع رسميًا ثوبها الإسلامي .

وكان قنصلا فرنسا وروسيا شابين متصاهرين محبوبين فى المدينة ، فظنا أن خروجهما بين الجمع يهدئ ثائر الأفكار فأخبرا الوالى بذلك وخرجا إلى الجامع حيث كان قد أكتظ بالهائجين ، فلما شاهد الثوار القنصلين زاد هياجهم فنزعوا القضبان الحديدية من النوافذ وهجموا عليهما على الرغم من معارضة الوالى ، وأخذوا يضربونهما حتى قتلوهما أشنع قتلة .

* * *

وتجمع بعد تلك الحادثة ببضعة أيام خلق كثيرٌ من السفطاء ، وذهبوا إلى جامع بشكطاش صباح يوم جمعة ينتظرون خروج السلطان إلى الصلاة ليرفعوا إليه عرضاً بمطالبهم . فعرف السلطان خبر تجمعهم فتمارض ولم يخرج ذلك النهار خائفاً على حياته ، وحاول عبثًا إخماد لهيب تلك الثورة . أما السفطاء فعادوا على أعقابهم فشلاً من طول الانتظار ، لكنهم انتشروا فى الغد فى الأسواق يشترون الأسلحة بفاحش الأثمان ، فقلق الجميع لهذه التأهبات حتى إن بعض السفراء نقلوا عيالهم وأثمن مقتنياتهم إلى بوارجهم ، ولكن لم يحدث فى ذلك الليل ما شوَّش الأفكار وعاد الجميع إلى أشغالهم كالعادة .. وعند الساعة العاشرة من الصباح التالى تجمهر السفطاءُ مرةً أخرى وساروا إلى غلطه ، فلم يقفوا فيها إلا ريثما استراحوا من عناء السير وانتظار بعضهم البعض ، ثم وصلوا طلمه بغجه فخرج للقائهم حسن بك ياور كبير أنجال السلطان يوسف عز الدين أفندى ، وسألهم قائلاً : ماذا تريدون ؟ فأجابوه بصوت واحد : نريد مقابلة السلطان . فأجابهم جلالته منحرف الصحة وقد أمرنى أن أبلغ عبيده الأمناءَ أن يصرحوا لى برغائبهم لأرفعها إلى جلالته فصاحوا ... لا . لابد من مقابلته .. فأجاباهم حسن بك بصوت الحزم والشدة ... قلت لكم : إن جلالته منحرف المزاج ، فإذا شئتم صرحوا بما تريدون .. فتردَّد السفطاء قليلاً ، ثم تشاوروا مدة فيما بينهم ، وقالوا بصوت واحد : نريد عزل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، فأجابهم حسن : سأرفع طلبكم إلى جلالته ودخل السراى ... وبقى السفطاءُ خارجًا ينتظرون الجواب . فلم يمض ربع ساعة حتى عاد حسن إليهم باسمًا ابتسامة الغيظ والكدر ،

وقال : جلالتـه يبلغـكم امتـنانه من ثقـتكم به وقد أصـغى لاستماع شكوى عبيده الأمناء وهو يأمركم بالذهاب إلى الباب حيث يتبعكم الفرمان . فهلل السفطاء فرحًا وسرورًا وصاحوا كثيرًا ليعش سلطاننا زمنًا مديدًا وعادوا إلى إستانبول وهم لا يكادون يصدقون بنجاح مسعاهم ...

ولم يكن السلطان مريضًا ، بل كان فى الحرم قلقًا مضطربًا حائرًا فى أمره يتمشى تارةً ويقعد أخرى ويضرب الفضاء بمجموع كفهِ حنقًا ، وكانت والدته مع السلطانة مهرى تحاولان عبثًا تهدئة بالهِ وتطييب خاطره وتشجعانهِ على ردّ مطالب السفطاء ، فكانت والدته تقول : الساعة ساعة الحزم والثبات فلا يسوغ الإصغاء إلى مطالب هؤلاءِ المجانين ؛ لأنك إن أظهرت الضعف سقطت من عيون شعبك وهلكت ..

والسلطان يجيبهما بصوت أنيسٍ : ولكن يقولون إن عنادى سيكون سببًا لهلاكى . فقالت لهُ السلطانة مهرى معترضة : ولكن هذا قول الأعداء ، وهل يعمل أحد برأى عدوه أو بقوله ..؟ فقالت لهُ والدته : ألا تعلم أن محمود باشا هو أخلص الناس إليك ، فإذا عزلته فعلى من تتكل من بعده ..؟ فأجاب السلطان : ولكنى لا أعرض بنفسى للهلاك من أجل وزيرى ، فكثيرًا ما يضطر الملوك التظاهر بغير ما يريدون اتباعًا لرغائب شعبهم .. ثم دخل خصى وقال : مولاى حسن بك بانتظار الجواب ، فأجابه السلطان : قل لهُ أن يجيبهم أن الفرمان سيتبعهم إلى الباب العالى قبل مضى ساعة من الزمن .

وهكذا أراد السلطان عبد العزيز أن يقوم بما وعد بهِ ، فأنفذ أحد حجابهِ إلى الوزراء يبشرهم بتعيين محمد رشدى باشا صدرًا أعظم وتعيين خير اللّه أفندى الشيخ المشهور بحرية أفكاره شيخًا للإسلام . فقابل الجمهور هذه البشرى بمزيد الفرح والسرور والتهليل العظيم ، وملأوا أحياء الآستانة هتافًا «بادشاه جوق بشا» .

وقام الصدر الجديد إلى طلمه بغجه مسرعًا يحفُّ بهِ السفطاء من كل جانب ليرفع واجب شكرهِ وامتنانهِ إلى السلطان ، فقابله ببرودة فأدرك الصدر حالاً أن السلطان

كان مضطراً إلى تعيينه غير مختار ، وقد أبى السلطان أيضًا أن يطل من شرفة القصر لاستقبال تهليل الشعب لهُ ، وهكذا عاد الصدر وانقلب السفطاء غاضبين حانقين .

وقد وهَم السلطان عبد العزيز أنه قد أرضى الأمة بعزله الصدر الأعظم ، وأن ذلك يعفيه من إجراءِ الإصلاحات ، فأبقى جميع الذين كانوا صنيعة محمود باشا فى الوظائف بنوع أن حزبه بقى مستلمًا شئون الدولة كعادته ، وهذا هو الحزب الذى كان يحاول رجال تركيا الفتاة إبادتهُ فوجدوهُ ثابت الأركان ... وكان السلطان يوالى طلب الدراهم من الصدر الأعظم ، وكانت الخزينة فارغة تمامًا والوزارة حائرة كيف تدفع للجنود ما تأخر لهم من رواتبهم القديمة بقطع النظر عن الجديدة ، ولذا تعذر على الصدر إجابة طلب السلطان بالمال للاحتفال بتزويج إحدى شقيقاته ومشترى الأحجار الكريمة لها ، وبلغ كدر السلطان من الصدر حده ، لأن تلك كانت المرة الأولى التى تجاسر فيها صدر أن يردَّ طلب السلطان فاستدعاهُ إليهِ ووبخهُ على ذلك بقارص الكلام ، فعاد الصدر إلى مجلس الوزراء وأبلغهم ما جرى لهُ ، وأنهُ عازم على الاستقالة ، فقام الوزراءُ لذلك وقعدوا والتمسوا منه البقاء خوفًا من إثارة حرب أهلية تغتنمها روسيا فرصة لامتلاك البلاد ، وقرَّروا أن ينفذوا من قبلهم ثلاثة من الوزراء الجريئين لأجل إقناع السلطان بالعدول عن إسرافه وبذخه وإجراء الإصلاحات .

فسار فى صباح ٢٠ أيار كلٌّ من الصدر محمد رشدى باشا وحسين عونى باشا ورديف باشا ، واستأذنوا السلطان بالدخول ، وكان فى ذلك النهار معكَّر المزاج لم تذق عيناهُ طعم الكرى ، وكان قد تواترَ على مهرى ظهور الأشباح والخيالات الهائلة ، فوجدوا السلطان مستلقيًا على كرسي وبيده سبحة من عنبر وعلى وجهه أمارات التعب والاكتئاب فانحنوا إلى الأرض مسلِّمين ، فلم يتنازل إلى تحريك شفتيه لردّ السلام فقدَّم لهم الخصيان كراسى وجلسوا بكل خضوع منكسى الرؤس وبقوا صامتين حتى وجه السلطان إليهم الخطاب فالتفت إلى وزير الحرب شذراً وقال : ما أخبار الحرب ؟ فأجاب الوزير : مولاى لقد أظهرت جنود جلالتك بسالة غريبة ، ولكن يظهر أن الهرسك أمنع من عقاب الجوّ ... فالثائرون يقاتلون من وراء الصخور وقنن الجبال

ومنعطفات الطرق فلا يلتقون بجنودنا المظفرة حتى يفرُّوا من أمامهم . فقال السلطان : كلاب .. نعم ويجب إبادتهم عن آخرهم واستئصال شأفتهم ، فإنهم هم سبب جميع مصائبنا . فقطب السلطان وجهه وقال : وأى مصائب تعنى ..؟ فقال الصدر : مولاى حالتنا المالية هى فى أسوأ مركز ، فالتجارة قد تعطلت والزراعة متأخرة والشقاءُ عامٌّ .. فقاطعه السلطان قائلاً : بلى قد فكرتنى وأنا أشقى سكان مملكتى منذ قطعوا عنى دفع «الرانت» ألا يرد على الخزينة نقود هذا الأسبوع ؟ فتردد الصدر ثم قال : بلى يا مولاى ستصلنى ضرائب ولايتى أنقرة وإيدين وهما أحسن ولايات الدولة . وأجاب السلطان : لا تنسَ إذًا أن تدفع لى حالاً « كوبون الرانت » وهى قيمة زهيدة لا تزيد عن ١٨ ألف ليرة فقط ، وكان قد تعهد لى محمود باشا لما عقد المعاهدة المالية التى خفض بها فائض الرانت أن يبقى ما يخصنى على حاله .. فأجفل الصدر لهذا الكلام ، ولكنهُ تمالك نفسهُ وقال : نعم مولاى إن القيمة زهيدة جداً لسلطان عظيم كجلالتك ، ولكننى بانتظار ستين ألف ليرة حال كونه يجب علىَّ أن أدفع ستمائة ألف ليرة ، ولذا ترانى مضطراً لإرسال ما أنتظره إلى الهرسك حالاً ، فإن جنودنا هناك حفاة عراة يتضورون جوعًا .. فقاطعه السلطان قائلاً : أنا أقول لك إننى محتاج إلى المال ...

فأجاب الصدر : فهمت أمر جلالتكم ، وأكرِّر العرض بأن جنودنا تتضور جوعًا وجرحانا يموتون من عدم الاعتناء بهم ؛ لأننا لم نقدر على إرسال المستشفيات النقالة حتى الآن ..

فقال السلطان غاضبًا : تلك حجج فارغة لم أسمعها من أحد من سلفائك ، فأجاب الصدر : إننى آسف ، لذلك يا مولاى على أنى أرى من الحكمة إخماد حنق الشعب بإرضاء الجيش ، فقال السلطان : لم يهتم أحد من قبلك فى إرضاء هذا الشعب وأنا أعرف الآن دواءَهُ الوحيد وهو حزّ رقاب رؤسائه فتبرد حرارة بقية الأعضاء .. فقال الصدر : نعم ، ولكن ذلك هواء قديم لا يجدى الآن فضلاً عن أنه يستحيل إجراء ذلك ، فصاح السلطان مستفهمًا أمستحيل ؟ وأى متى حرمت حق التصرف بأرواح عبادى وأملاك رعيتى ؟ فأجاب الصدر بصوت ثابت : منذ عدتنا روسيا من الدول المتمدنة ،

فصاح السلطان وكاد يتميز من الغيظ : هذه واللّه أفكار حزب تركيا الفتاة . فعضّ الصدر على شفتيه حنقًا ، فقال حسين عوني باشا ، ساعتئذ ، مولاى إن الغاية من تشرفنا اليوم فى أعتابك الجليلة هى عرض مسألة مهمة يتوقف عليها نجاح الدولة . فقال السلطان : ما هى ؟ فقال : الحرب الأهلية تتهددنا ، فإن أكثر من عشرين ألف مسلم ينتظرون أقل سبب ليخضبوا الآستانة بالدم إذا لم تجب مطالبهم . فوقف السلطان عند هذا الكلام يرتجف غضبًا وقد شدَّ على السبحة بيده ففرطها فتشاور الوزراءُ بألحاظهم وصمموا على الثبات ، فقال رديف باشا : الشعب يطلب عزل الولاة المتصرفين والمأمورين المذكورة أسماؤُهم فى هذه اللائحة ، ثم قام ورفعها إليه ...

فأخذها السلطان بعنفٍ وألقى عليها نظرة غضب فوجد فيها أسماء جميع المأمورين الذين نصبهم محمود باشا الصدر السابق ، وكان السلطان واضعًا ثقته فيهم ، فلما فرغ من تلاوتها التفت إلى الوزراء وقال ساخرًا : أهذا كل ما تريدون ؟ فأجابوه : نعم ، فقال السلطان أجيبوا إذًا هذا الشعب أنى لا أجيب طلبه هذه المرة وقد أجبت طلبه المرة الأولى فطمع ، ولذا لا أجيز عزل أحد من هؤلاءِ المأمورين ، وسأُبقى هذه اللائحة فى جيبى ، لأنى عرفت بها المأمورين المخلصين لى ، والآن يريد الشعب أن أضحى له أخصائى ... لا وألف لا . قال هذا وانطرح على كرسيه يرتجف غضبًا . فمدَّ حسين عونى باشا يده متوسلاً قائلاً : مولاى تلك إصلاحات واجبة لخير الأمة .. انظر حالة الدولة ، الأعداءُ تحيط بنا من كل جانب ، وعوضًا عن أن نفكِّر بالدفاع عن أنفسنا والذود عن حوضنا نقضى أيامنا وساعاتنا بالنزاع والخصام . فقال الصدر : نعم يا مولاى هذه الإصلاحات لازمة لفلاح الدولة ولإحياء همة الأمة وسيكون تأثيرها حسنًا فى جميع الأنحاء . فضحك السلطان وقال : إى حضرات الباشاوات ، أما فرغتم بعد من إلقاء مواعظكم وإعطاء نصائحكم ، واللّه لم يبقَ لى إلاَّ أن أتلقى أوامركم وأسلمكم زمامى ... فقال الصدر : نحن نتكلم من أجل صالح الدولة وباسم الأمة ، فصاح السلطان غاضبًا : أنا الدولة وأنا الأمة والحق لى وحدى فى معرفة ما يوافقها ، فأنتم أنتم الذين زرعتم الخصام بينى وبين رعيتى توصلاً إلى مراكزكم ، وأنا فى غنى عن البحث لمعرفة أسباب الهياج ، فقد كشفت أطماعكم لى

عنها النقاب تتخذون الشعب حجة فتقولون كل مرّة الشعب يريد كيت وكيت ويطلب كذا وكذا، فأى متى كان سلطان آل عثمان يتلقى أوامره من عبيده ؟ فأجابه الوزراءُ : ولكن قد مضت تلك السنون وأهلها والآن المركز حرج . فقال السلطان : نعم المركز حرج لأنى لم أفتح عينى جيداً ، ولكن هذه اللائحة هى مفتاح الدسائس والمؤامرات ، فأصدقاؤكم يرغبون فى تجريدى من أصحابى .. لا . انزعوا هذه الأوهام من رءُوسكم ، وإنى أعلمكم فى الختام بأنى سأعيد محمود باشا إلى الصدارة ، فإنه على الأقل لا يخشى من انتقام الشعب وحنقه فوقف الوزراءُ وكادوا يتميزون . فوقف السلطان حينئذٍ هائجًا مزبداً وصاح بهم : اخرجوا أيها الخونة ، فإن تجاسرتم على المثول أمامى لأحزّنَّ رءُوسكم حزاً . فخرج الوزراءُ القهقرى وقلوبهم تتقد حنقًا وغضبًا .

(١٤)

مراد أفندى (ولى العهد)

وخرج الوزراءُ إلى الصدارة للاجتماع بزملائهم الذين كانوا بانتظارهم لمعرفة نتيجة مفاوضتهم مع السلطان ، فلما علموا بما جرى وبالإهانة التى لحقت بالصدر والوزراءُ أكبروا الأمر وتذمروا من تجاوز السلطان الحدّ ، وكانوا جميعهم قد فكروا منذ مدة بأن لا أمل بالإصلاح إلاَّ بخلع السلطان ، ولكن لم يكن الخلع عادة متبعة فى تركيا ، فلم يبقَ لديهم إلاَّ القتل وهى الواسطة الوحيدة لتولى مراد أفندى عرض السلطنة على أنه لم يكن يتجاسر أحد من الوزراء على الاقتراع على قتل السلطان ، فتفاوضوا مدة أربع ساعات وقلبوا المسألة على وجوهها المختلفة فقرَّروا بعد البحث والجدال باستفتاء شيخ الإسلام خير اللَّه أفندى إذ لا يخفى أنهُ لا يمكن خلع السلطان بغير تلك الفتوى الشرعية فأنفذوا إليه مع ياورهم على ثقةٍ من إخلاصه سؤَالين مختومين من جميع الوزراءِ هما :

١ – ما قولكم دام فضلكم : إذا عجز سلطان عن القيام بشئون مملكته بسبب خلل فى شعوره أيجوز خلعه أم لا ..؟ أفيدوا ولكم الأجر والثواب .

٢ – إذا أسرف سلطان فى أموال الأمة وبددها على ملاذّه الشخصية دون أن تعود بأدنى فائدة على الشعب . أيجوز خلعه أم لا ..؟ أفيدوا ولكم الأجر والثواب .
ولبث الوزراء بانتظار فتوى شيخ الإسلام كأنهم على مقالى الجَمْر ، ولكن لم يطل اصطبارهم كثيراً حتى عاد إليهم الجواب فى ذيل ذينك السؤالين ، وهذا نصه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ ﴾

بلى يجوز خلع السلطان إذا خرب بلاده بعناده وإسرافه ؛ لأن السلطان هو أب لرعيته وليس بظالمهم غفر اللَّه له ولنا إنه الرَّحمنِ الرَّحِيم الختم

خير اللَّه

فلما وصلت هذه الفتوى الشرعية إلى الوزراء لم يبق عليهم إلاَّ إجراء تنفيذها ، على أن ذلك لم يكن من الهنات الهينات ، كانوا يعرضون به حياتهم للهلاك ، لكنهم قرروا أخيراً وجوب خلع السلطان فى يوم « ٣٠ أيار » عند الظهيرة وتولية ولىّ العهد مراد أفندى ابن أخيه بدلاً منه .

وكان صلاح الدين بك منذ وفاة حبيبته قد استقال من وظيفته فى سلونيك وتعيّن رئيساً لأركان حرب المشير حسين عونى باشا ، وكان هو رئيس العصابة المتآمرة على خلع السلطان ينوب حقداً ويزداد رغبة فى الانتقام وقد ثقلت عليه الحياة منذ ذلك المصاب ، فكان يسعى وراء كل غواية ويبحث عن كل مهلكة أخذاً بثأره وكان حسين عونى باشا عالمًا بهذا كله ، فكان يعهد إليه بالأمور الجسام فيقوم بها حق القيام حتى صار موضع سرّه وركن اعتماده وعليه قرَّر الوزراءُ أن يعهد إلى صلاح الدين بإيصال الخبر إلى ولىّ العهد بقرب توليه العرش ولا يخفى أن تلك مهمة من أخطر المهمات وأوعرها طريقًا وأصعبها مراساً ، فطار صلاح الدين فرحًا

لما عرف ذلك ، ولا غرابة فإنه كان قد مضى عليه سبع سنوات يعلل النفس بتلك الآمال ألا وهى الانتقام والأخذ بالثأر ومن ثم تحرير العرش من ربقة الظلم والظالمين ، وقد قربت تلك الساعة ودنا ذلك اليوم العظيم ، فدبَّر أولاً الحيلة للوصول إلى وليّ العهد فسار إلى محلة البيرا وقصد خياط مراد أفندى وسألهُ بكل هدوءٍ وحزم عما إذا كان ثوب سمو مراد أفندى قد جهز ، فأجابه الخياط : كلاً فهو لم يفصل بعد ؛ لأن سموه أمره بتفصيل غيره ، فقال صلاح الدين : لا بأس وهل ينجز نهار الجمعة ؟ فأجابه : نعم وقبل ذلك . فقال صلاح الدين : إن سموه يرغب فى الاطلاع على « مُثُل » الأجواخ الصيفية ، فهل يمكنك إعطائى أحسن ما عندك منها مع بيان أثمانها ؟

فقام الخياط يسعى على العَجَل قائلاً : سمعًا وطاعة ، ودبر لهُ ما طلب وقد وهم أنه من خدم وليّ العهد . فبعد أن استلم صلاح الدين ما أراد سار إلى سراى جراغان حيث كان مراد أفندى مقيمًا فى بناية صغيرة شادها له السلطان عبد العزيز ليبقى دائمًا تحت سيطرته .

* * *

لا تخفى على القرأء الكرام الشهرة التى نالها إسماعيل باشا خديوى مصر بعد افتتاح برزخ السويس وإعجاب أوروبا به ، فهذه الشهرة كبرت مطامعه وأكسبته صداقة السلطان وميل الباب العالى ، فسعى وراء إلغاء وراثة العهد الإسلامية المبنية على أن يكون كبير العائلة وريثها وولى عهدها ، مريداً بذلك الاقتداءَ بملوك أوروبا فنجح وحصل على الفرمان الشهانى بأن يكون أبناؤُه من بعده ورثاء عهده وحدهم ، وهكذا حُرِم أخوه مصطفى فاضل باشا من حقوقه . وقد سرَّ الأوروبيون من ذلك وزاد إعجابهم بالخديوى وعدُّوا عمله ضربًا من الإصلاح واتباعًا للتمدن الأوروبى ، أما المسلمون فى تركيا والبلاد الإسلامية فقد ساءَهم خرق تلك العادة ولا سيما لمَّا علموا أن أمير المؤمنين وخليفة المسلمين لم يرضَ بخرقها فى الخديوية المصرية فقط بل فى السلطنة العثمانية أيضًا ، حيث أعلن أن ابنهُ يوسف عزّ الدين البالغ من

عمره يومئذٍ عشر سنوات هو وريثهُ وولى عهده مريداً بذلك حرمان ابن أخيه مراد أفندى وراثة العرش فازداد لذلك ميل الناس إلى مراد أفندى وصار موضوع حب الجميع ومحجة آمالهم .

كان السلطان عبد العزيز معطيًا - والحق يقال الحرِّية - التامة لأولاد أخيه فى أمر معيشتهم وتصرفهم إلى حين سفره إلى أوروبا حيث استصحبهم معهُ ، فلما عاد أمر بحجزهم ومراقبتهم وخصوصًا مراد أفندى ، وكانت قد دبت فى قلبه عقارب الحسد لمًّا رأى احتفاء الملوك والأمراء بهِ وإعجابهم بذكائه وعدم اكتراثهم بابنه يوسف عزّ الدين .

وكان لمراد أفندى مزرعة جميلة فى جزيرة «برنكبو» تشبه بتنسيقها المزارع الأوروبية تمامًا ، وكان يقضى فصل الصيف فيها بعيشة سانجة فيتزاور مع جيرانه ويقطع أوقاته بالموسيقى أو باستقبال ضيوفه ، وكان هؤلاء يعجبون من اللطف الغريب والإكرام العجيب اللذين كان يبذلهما لهم ذلك الأمير الذى سيكون يومًا ما سلطانًا لمملكة آل عثمان .

فلما بدأ السلطان يفكر فى نزع ولاية العهد منه وتحويلها إلى نجله بدلاً عنه أصدر أمره بمنعه من الاصطياف فى الجزيرة ، ولم يسمح له أن يقيم فى الصيف إلا فى كشك صغير فى « حيدر باشا » ، ومنع الناس من زيارته إلا من كان هو على ثقة منهم . فأمر بتبديل خدمه وحشمه وخصيانه ، وأقام الجواسيس يراقبون كل حركة من حركاته وأقل لفتة من لفتاته ، وكان مراد أفندى كما قلنا ولوعًا بفن الموسيقى يتلقاه عن أستاذ إيطالى ، فأمر السلطان بطرد الأستاذ وحجز أوراق الموسيقى عن مراد وضغط عليه بغير ذلك من أمور التضييق والمراقبة حتى ضاقت الدنيا فى عينيه ، وتغلبت عليهِ السويداء وعرتهُ السآمة والملل من كل شىء ، فكان يشتهى كل يوم لو وُلد فلاحًا حرًا لا أميرًا من آل عثمان سجينًا فى قصره محرومًا من كل لذة فى الحياة مقصيًا عن الهيئة الاجتماعية ، وازدادت المراقبة عليهِ والحجز على حريتهِ لما هب حزب

تركيا الفتاة يطالب بالإصلاح فضاق صدره جداً حتى صار يقول لحاشيته : فليقتلوني وإلاَّ اختلت شعوري ...

وفي صباح الاثنين الواقع في٢٩ أيار كان مراد أفندي جالساً تجاه أحد خصيانه يلاعبه بالنرد ليضيع الوقت كعادته ، وكان في ذلك النهار قلقًا مضطربًا على أنه لا يدري لذلك سببًا ، فكان يضرب الزهر بلا فكر ، ثم سمع ضجة وجلبة في أحد غرف الخدم وطرق أذنه صوت غريب وجم منه خوفًا فقال لشيخين كانا جالسين في زاوية القاعة يدخنان أن يذهب أحدهما لاستطلاع الخبر ، فأجاب : مالك ولهم خدم يتخاصمون ، فتأفف مراد أفندي ، وقال : لكن ألا يسوغ معرفة السبب وموجب تلك الجلبة فخرج أحدهما وعاد ووراءَهُ رجل أرمني زري المنظر فسلم على الحاضرين ببلاهة قبل أن يسلم على مراد أفندي فضحك الجميع من بلاهته ، فقال الخصي : هذا امازجيان خياط سموّك معهُ مُثُل (عينات) أجواخ ، فقال مراد أفندي في نفسه سيحرمونني حتى اللباس ، ثم قال للخصي : خذ منه المُثُل وقام عن الديوان وجلس ، لكن الخياط هب عاجلاً وقدمها بنفسه ووقع نظر مراد أفندي عليه فعرفه للحال أنه صلاح الدين بك ، وأنه يريد بتخفيه إبلاغه أمراً مهمًا فصمت وتمالك نفسه وتناول المُثُل وتفحصها قليلاً ، ثم قام إلى النافذة يظهر رغبته بفحص ألوانها على النور فوجد بينها ورقة صغيرة مكتوب فيها بخط سرِّي أنه سينادي بهِ سلطانًا في الغد .. فجزع مراد أفندي لهذا النبأ الفجائي وطار قلبه شعاعًا وخاف من مؤامرة وقتل وأراد أن يخفي حاساته عن الجميع ، فأشار إلى أحد الخدم أن يخرج مع الحاضرين فامتثلوا ، وحينئذ رفع صلاح الدين طربوشه الذي كان مخفيًا بهِ سحنته وانحنى إلى يدي وليّ العهد يقبلهما فقال لهُ مراد أفندي : أي عزيزي صلاح الدين أأنت الذي عهدوا إليك بنقل هذا الخبر إليَّ فإذًا خلاصي قريب ، فأجابه : أي نعم يا مولاي ، إن غداً ليومٌ عظيم ستهتزُّ له تركيا طربًا وسروراً ، وأن غداً ليوم الانتقام . فقال مراد : أي صديقي العزيز قد بلغني خبر مصابك وتفاصيل شقائك لما منعوا عني جميع الأخبار السارة فصمت صلاح الدين برهة لذلك التذكار ، ثم قال : مولاي الفرصة أثمن من أن تُضاع لا تفكر بي لأني لست بعد ذلك المصاب إلاَّ آلة للانتقام والأخذ بالثأر فعش سعيداً وغداً نحطم قيود

أسرك وسلاسل سجنك وأسأل اللّه أن يمنحك عمراً طويلاً وملكًا سعيدًا ، فأجابه مراد حزينًا : لا تقل هذا يا صلاح الدين بك ، فقد أنهكوا قواى ، وإنى شاعر باختلال شعورى ، ثم قال : وماذا تفعلون بعمى عبد العزيز ؟ فأجابهُ : يخلع ثم ينفى . فقاطعه مراد أفندى قائلاً : لا . يجب ألاّ ينفى ، واحرصوا على حياته خصوصًا ، وأستحلفكم بأغلظ الأيمان ألاّ تلطخوا العرش بالدم وألا تبللوه بالدمع فإنى صافح عما قاسيته منه ، وأريد أن أعامله بالخير بدل الشر . وما عتم أن قال ذلك حتى دخل بعض الخصيان الجواسيس ، فانحنى صلاح الدين بك قائلاً : مولاى سينجز غداً كل شيءٍ اتباعًا لأمرك فشكره مراد أفندى وصرفه . وخاف أن تخونه قواه فدخل إلى الحرم إخفاءً لحاساته ، وشكر اللّه على نجاته بعد أسر ست عشرة سنة .

(١٥)

ليلة ٣٠ أيار ١٨٧٦م

تلك ليلة من ليالى الدهر مشهورة، وستبقى فى تاريخ آل عثمان إلى الأبد مسطورة كان الجو فيها صافيًا والسكون تامًا لا يتخلله إلا جرى بعض الرسل الذين كانوا يذهبون ويجيئون من كل جانب ، ولما كان أهل الآستانة قد تعودوا رؤية مثل أولئك الرسل يتراكضون من جهة إلى أخرى امتثالاً لأوامر الحرم والسرارى لم ينتبه أحد إليهم على أنهم كانوا ينقلون فى ذلك المساء أخطر الأوامر وأشدها أهمية وهولاً ، ثم وصل أمر إلى بارجتين كبيرتين كانتا راسيتين فى قرن الذهب بأن توقدا مراجلهما وتتأهبا للسفر ، وسلم إلى الربان أمر مختوم لا يحق له فضه إلا على بعد عشرين ميلاً فى بحر مرمرا ، وصدر أمر سرِّى آخر من وزيرالحربية إلى قومندان حرس السلطان الخاص أن يجيء بخيله ورجله وجميع معداته إلى الترسخانة فامتثل وجاء بجنوده على عَجَل واهمًا أن ذلك أمر السلطان فنقلوا جميعًا إلى ظهر البارجتين ، وعند الساعة العاشرة رُفع الجسر وخرجت البارجتان مقلتان أخلص الجنود والقواد للسلطان عبد العزيز وارتاح الوزراء المتآمرون من شرهم وأمنوا من إفشاء السرّ وبدأت تباشير

دسيستهم تبشر بالنجاح التام . وكان السلطان عبد العزيز فى ذلك المساء متأثرًا جدًا مما حدث فى الصباح بينه وبين وزرائه ، وكانت والدته والسلطانة مهرى تشجعانه على الحزم والعزم وإلاَّ جلب على نفسه الويل والشر ، وأخيرًا غلب على السلطانتين النعاس فرقدتا وبقى السلطان وحده مسهدًا قلقًا مفكرًا فى الاحتياطات الصارمة التى كان عازمًا على اتخاذها فى الغد ، فقال : لا بد لى من أن أحذو حذو والدى ، فقد ذبح فى ليلة واحدة خمسمائة من زعماء الانكشارية فارتاح وأراح البلاد من شرهم وأنا لا بد لى من ذلك فقد صدقت مهرى فى قولها إن الضعف مجلبة للهلاك ، وما انتهى من هذا الفكر حتى سمع دوى مخر مراكب كبيرة تعج عجيجًا شديدًا . فقال فى نفسه : ما هذه المراكب الخارجة الساعة واشتدَّ قلقه كثيرًا لأنه كان ممنوعًا خروج المراكب ليلاً مهما كان ، فقام إلى النافذة وفتحها فوجد البارجتين خارجتين فدُهش من ذلك لحصوله بغير إذنه وظنَّ فى الأمر دسيسة فصاح واللّه يا حسين عونى لا أبقانى اللّه إذا بقيت إلى غدٍ ونظرت مغيب شمسه وخرج حنقًا من غرفته إلى غرفة الياوران وأمرهم على الفور أن يطيروا لاستدعاء وزير الحربية إليه فطار رئيسهم على جواد كان مسروجًا دائمًا لسرعة تنفيذ الأوامر وطفق ينهب الأرض إلى السر عسكرية ، وكان حسين عونى باشا مع اثنين من الوزراء يتآمرون والسرور طافح على وجوههم لنجاح مسعاهم فى إبعاد حرس السلطان الخاص ، فلما وصل ياور السلطان انقلب سرورهم إلى رعبٍ وخافوا أن يكون أُفشى السرُّ وخان بعض المتآمرين ، فقال حسين عونى باشا للياور : سر إلى السلطان وأخبره أنى مقتفٍ أثرك على عَجَل وأنفذ فى الحال رسلاً إلى بقية الوزراء يدعوهم للاجتماع به فهرعوا إليه من كل جانب وقد ارتعشت قلوبهم وجلاً فقص عليهم حسين عونى باشا أن الياور أخبره بأن السلطان كان يكرر لشدة حنقه كلمات الخيانة والمؤامرة والدسيسة وأخذوا يتشاورون فيما يعملون وكاد الوقت يمضى وهم لم يجزموا بشىءٍ فوقف أخيرًا مدحت باشا خطيبًا فيهم وقال : إن من الجنون التردد فى العمل بعد الآن وإلاَّ هلكنا جميعًا فى الغد بلا مشاحة فلا يصح بعد ذلك احتمال أعمال هذا السلطان الجنونية ، إذ لا بد

من إنقاذ البلاد ، وقد تمَّ نصف ظفرنا ولا بد أن تتكلل مساعينا بالنجاح التام مع قليل من البسالة والإقدام . فقالوا : ولكن ما الحيلة ؟ قال :

– يجب التعجيل بخلع السلطان هذا المساء عوضًا عن الغد ، ويجب ألا تبزغ شمس غدٍ إلا والسلطان عبد العزيز مخلوعًا والسلطان مراد متسنمًا عرش آل عثمان ، فقال حسين عونى : قد قلت الحق ونطقت بالصواب ، لكن ما الطريقة لذلك فى هذا المساء ولسنا على أهبة تامة ، فأجابهُ مدحت باشا : نعم أنا عالم بخطارة المسألة غير أن الوطن فى خطر وكلٌّ منا حامل على عاتقه قسمًا هائلاً من المسئولية ولا ينال العلى من لم يركب الخطر ، فلا بدّ من إنقاذ تركيا من وهدة الهلاك ، وعليهِ أرى أن يعهد إلى عونى باشا أن يذهب الساعة لإيقاظ ولىّ العهد واستحضاره إلى السر عسكرية ونحن نستدعى شيخ الإسلام ويذهب رديف باشا إلى ثكنة طلمه بغجه فيأمر بتوقيف الضباط والجنود الباقية فيها للحراسة ويسلم قيادة الجنود التى اخترناها لمحاصرة السراى إلى صلاح بك ويتخذ وزير البحرية مثل هذه الوسائل فى الدوارع الراسية أمام طلمه بغجه ، وبعد أن يتم كل شىء بالحذر والحكمة والجسارة والإقدام يذهب رديف باشا فيبلغ السلطان خبر خلعه ويخرجه من سرايهِ إلى السراى القديمة ونجرى نحن المبايعة للسلطان الجديد ، وهكذا لا يبزغ فجر غد حتى تنتقل تركيا إلى طور جديد سعيد إن شاءَ اللّه .

فصادق الجميع على هذا الرأى وعلى وجوب العمل بهِ حالاً .

وعند نصف الليل تمامًا خرج رديف باشا يصحبهُ صلاح الدين بك مع ٣٠ ضابطًا من المتآمرين كانوا معهما وقصدوا ثكنة طلمه بغجه ، فلما رأى الضباط والجنود الوزير خفوا للقائهِ والتسليم عليهِ ، فأبرز رديف أمرًا من السر عسكرية بتوقيف الضباط فأوقفهم بلا ممانعة وعهد صلاح الدين إلى بقية الضباط الذين استصحبهم معهُ باستلام مراكزهم واستلم هو القيادة الكبرى فأمر الجنود أن تتهيأ للمسير بكامل معداتهم فلم تمضِ عشر دقائق حتى تجمع الجنود فى ساحة الثكنة مدهوشين من إيقاظهم فى تلك الساعة فتناول صلاح الدين مسدسه واستعرض كل نفرٍ منهم فردًا

فرداً ليعرف إذا كان بينهم خائن أو جاسوس ، فلما فرغ خاطب الجنود قائلاً : الوطن فى خطر أترون هـذا المسدَّس فكل من ينبس منكم ببنت شفة مات فى الحال وأمرى الوحيد إليكم الصمت التام ... فلم يُجب أحد بشىءٍ ، وحينئذٍ استلَّ رديف باشا حسامه ومسدسهُ بيده وسارَ والجنود تتبعه بقيادة صلاح الدين بك وانحدروا حتى سراى طلمه بغجه ، وكان يظهر أن الجمع هنالك نيام والسكوت تام والظلام دامس شديد الحلك فتقدم رديف إلى الباب الحديدى وقبل أن يسأل الحارس من القادم تقدَّم إليهِ ضابط مصوبًا مسدَّسه إلى صدره فأعطاهُ كلمة التعارف ، ثم أمر الضباط بتوقيف الحارس وإبدالهِ بغيره ، وظل يفعل مثل هذا مع كل حارس حتى فتحت جميع الأبواب فدخلت الجنود وأحاطت بالسراى إحاطة السوار بالمعصم وبقيت والحق يقال الجنود جاهلة السبب فى هذا كلهِ وقد وهموا أنهم يعملون بأمر السلطان فوزع صلاح الدين الضباط على المراكز وأخذ على نفسه أخطرها أى حراسة الباب الكبير وهناك اتكأ على سيفه المسلول ورفع رأسه إلى نوافذ السراى ، وقال : أى سلطانة مهرى قد أزفت ساعة الانتقام . فلما رأى رديف باشا أن جميع الاحتياطات قد أُخذت من الخارج تقدم إلى السلم الكبرى فصعدها وثلاثة من الضباط تتبعهُ وسار إلى قاعة الخصيان فذعر هؤلاء لما شاهدوا أولئك الزوار فى تلك الساعة ولم يعرفوهم لأول وهلة فصاحوا ماذا جاءَ بكم إلى هنا ، ومن أين دخلتم ؟ ومن أنتم ؟ وماذا تريدون ؟ فأجابهم رديف : لا ثرثرة ولا هذيان أنا رديف باشا أريد مقابلة السلطان لأمر مهم فليذهب أحدكم وليخبر رئيس الخصيان أن يدخلنى عليهِ الساعة بلا إبطاء . فقالوا : أفندم الجميع نيام فى الحرم فصاح بهِ رديف اذهب وقل كما أمرتك فخاف الخصى وسار إلى رئيسه يخبرهُ بما كان فقام مهرولاً وكان عبداً أسود طويل القامة هائل الجثة ، فلما وصل قال غاضبًا : أى رديف ، ماذا أصابك حتى جئت توقظنى فى مثل هذه الساعة ولو لم يخبرنى هذا العبد بأن المسألة هامة لما جئت . فأجابهُ رديف عابساً : قد أحسنت بمجيئك وإلا لكنت ذهبت بنفسى وأيقظتك بحدّ هذا الحسام والآن سِر وأخبر مولاك أنى أريد مقابلته الساعة بلا تأخر ولا إمهال ، فصاح الخصى : أى رديف أجننت أو أنت راغب فى حزّ رأسك حتى تُجاسر على هذا الكلام وإيقاظ جلالة السلطان ، إذًا هو نائم ؟ نعم قد رقد

الساعة ، اعلم إذاً أن تركيا بعد الآن قد تملصت من نير الحرم والخصيان ، وهذه الليلة هى آخر ليالى الظلم والاستبداد ، وإذا كنت فى شكٍّ مما أقول فتقدم ، ثم تناول الخصى من يده وسار بهِ إلى شرفة ، وقال لهُ : انظر الجنود المحيقة بالسراى . فذعر الخصيان ورعبوا وصاروا يولولون كالنساء فانتهرهم رديف قائلاً : كل من يرفع صوته أخطف نفسه ، فصمتوا للحال كأن على رُءوسهم الطير ، فقال رديف لرئيسهم وقد جمد الدم فى عروقه من الخوف : اذهب وأخبر السلطان بما سمعت وشاهدت ، وإنى أريد مقابلته الساعة ..

فأجاب الخصى : « آمان أفندمز » لا أتجاسر على ذلك ؛ لأنهُ يحزّ رأسى ، فقال له رديف : لا تخشَ شيئًا خذ هذا القنديل وسر أمامى . فقال الخصى : أَلست عازمًا على قتله على الأقلّ ...؟ فأجابهُ بازدراءٍ : لستُ بسفاح . سر بنا . أين الطريق ؟

فسار الخصى صاعداً السلم الرخامية يتبعهُ رديف وضباطهُ الثلاثة ، فاجتازوا رواقاتٍ وقاعاتٍ كبيرة فارغة حتى وصلوا غرفة السلطان ، ولم يتجاسر الخصى على فتح الباب فوقف وأخذ يتوسل إلى رديف باشا بإعفائهِ من هذه المهمة فصوَّب رديف المسدَّس إلى صدرهِ وقال : إذا لم تمتثل أخمد أنفاسك هذه الساعة ، فطار قلب الخصى ذعراً وهلعًا وقال : انتظرنى هنا على الأقل لأن السلطان ليس وحده ، فقال رديف : لا بأس فأنا بانتظاره .

وهكذا دخل الخصى وقام رديف باشا بكل رباطة جأْش يشعل قناديل الغرفة وشموعها ولم يكد يفرغ منها حتى أطلَّ السلطان على عتبة باب غرفته فتقدَّم إلى وزيره بوجهٍ عابس ، وقال له بصوت يرتجف غضبًا : ماذا تريد الساعة منى حتى تجرأت على إيقاظى . فانحنى رديف باشا بكل احترام ووقار مسلمًا وقال : أمرت جلالتك يا مولاى ، باستدعاءِ السر عسكر ولما كان منهمكًا فى شئون الدولة والأمة لم يتمكن من الامتثال لأمرك الكريم .

– أوَ هذا كل ما تريدهُ ؟ وهل جئت لتعتذر عن ذلك المجنون الذى تجاسر على إنفاذك إلىَّ فى مثل هذه الساعة ؟

- لا ياصاحب الجلالة لو كان الأمـر كذلك فقط ما كنت أقلقت راحة جلالتك ، وإنما هنالك أمر أهمّ وكل دقيقة تمرُّ تزيدهُ خطراً .

- قل إذاً ماذا تريد أمن مؤامرةٍ عليَّ ؟

- نعم لقد أصبت .

فصاح السلطان : مَنْ وأين وكيف وماذا جرى ؟

فانحنى رديف باشا قائلاً : هـذا الكتاب المنـفذ إليك من جـلالة ابن أخـيك ينبئك ما تريد ؟

فتناول السلطان الكتاب وهو يظنُّ نفسه فى منام ، ولم يكد يتصفح العبارة الأولى منه حـتى امـتـقع لونه وطار صـوابه وصـاح أيهـا الخوَنة اللئام والأدنياء الطغـام أظنـنتمونى أخشى وعيدكم أو يروعنى تهديكم أتطلبـون منى الرضوخ لسلطان جديد ، فمن ذا الذى تجاسر على خلعى من عرشى ؟

فـأجابه رديف باشا بسكون جـأش : الشـعب والجند والعلمـاء والأئمة ، وإذا كنت جـلالتك فى ريب من ذلك فـمـا عليك إلا أن تشـرف من نوافـذ قـصـرك فـتـرى جند البر والبـحر قـد انصـاعـوا لأوامـرنا ، وأن ليس لك من مـهرب أو مـغـيث ولا لديك حـيلة إلا التسليم للقضـاء والطاعة للسلطان الجديد ، فضجَّ السلطان وصخب لما رأى الجنود مـحيقة به وأخذ يصـيح كذى جِنَّةٍ يا للخيانة يا للسفالة ... يا لقومى يا لجنودى ... فقـال له رديف باشـا : مـولاى الفرصـة أثمن من أن تُضـاع أرجـوك ألا تعرِّض حـياتك للخطر ، فإن حـراسك وقـوادك موضع ثقـتك وركن اعتمـادك هـم الآن على بُعد عشرين مـيلاً فى بحر مرمرا . فعـرف السـلطـان حـينـئـذٍ أن لا خـلاص ولا منـاص ولا حيلة إلا بالرضوخ والامتثال ، فقال : العزل خير من تولى شعبٍ خائن وجيشٍ عاق .

وكانت السلطانة مـهرى قد استطـالت غيـبـة السـلطان فقلقت ثم سمعت الجلبة فضـجت وأعـولت وأخـذت تنادى بـالويل والثبـور وعظائم الأمور ، فصـاح بهـا السلطان

أن تصمت فصمتت وطفقت تبكى وتنوح وتراءت لديها عمته السلطانة عليّة وميتتها فازداد رعبها ونحيبها .

ووقف السلطان برهة يتأمل فى تلك الساعة الهائلة ثم التفت إلى الخصى وأمره أن يأتيه بردائه فألقاهُ على كتفيه وعهد إليه بالسلطانة مهرى خاصة والتفت إلى وزيره قائلاً : هيا بنا إلى أين المسير . فأجابه رديف : إن على الباب زورقًا ، وإذا بامرأةٍ هجمت على الحاضرين ، واعترضت خروج السلطان ، وصاحت أيها الخوَنة اللئام إلى أين تسيرون بسلطانكم وولىّ نعمتكم ؟ فقال لها السلطان : أى مهرى العزيزة دعينا نسير على خيرة اللّه ولا تزيدى قلقى ومصابى ولا تعرضى حياتكِ وحياتى للخطر . سلمى أمركِ للّه كما سلمته أنا نفسى ، فإنه ولا شك سيجازى الخوَنة على خيانتهم وهو على كل شىءٍ قدير . فأجهشت مهرى بالبكاء قائلة : وهل أراكَ بعد الآن ؟ فأجابها رديف : نعم بعد ساعة تجتمعين به فلا يفرّقكما أحد بعد ذلك .

وانحدر السلطان يلعن وزراءَهُ وضباطه وجنده وخصوصًا نجله يوسف عز الدين ، لأنه كان رئيس حرسه ، وكان فى تلك الليلة نائمًا لم يعرف شيئًا ...

وعادت مهرى تبكى وتنتحب وتندب سوء حظها ، وإذا بصوت يقول : الوقت أثمن من أن يضاع بالبكاء والنحيب ، فيجب أن نعلم بقية السلطانات والحرم بسرعة التأهب ؛ لأنه يجب مفارقة السراى قبل بزوغ الفجر . فرفعت السلطانة نظرها ومسحت دموعها وإذا القائل رئيس الخصيان فصاحت به أوَ هذه تعزيتك لى الساعة ؟

– مولاتى البكاءُ لا يرد الفائت والحكمة تقضى بالنظر فى المستقبل .

– آه يا ليتنى مت قبل الساعة وكنت نسيًا منسيًا .. وبعد فهل تعرف إلى أين ساروا بالسلطان ؟

– سمعت رديف لما ركب مع السلطان الزورق الذى أعدوه له يأمر البحارة بالاتجاه إلى اسكى سراى .

– أوَ هذه هى السراى التى اختاروها منفَى لسلطانهم فى عاصمته نفسها آه يا رباه ... صوِّب انتقامك إلىَّ وأوقفه عندى فأنا وحدى المسيئة وأنا وحدى المذنبة .

وطاف الخصيان يوقظون الحرم والنساء ويعلمونهم بالتأهب للخروج من السراى، فلما عرفن السبب أخذن يولولنَ ويصخبنَ فيملأْن جوانب السراى بكاءً ونحيبًا وقد تأهبنَ للمسير فجمعن أثمن ما عندهنَّ من المال والجواهر ، وأخذ الخدم ينقلونهنَّ إلى الزوارق ، وهكذا أخلين تلك السراى فى أقل من ساعة من الزمان .

وركبت والدة السلطان مع السلطانة مهرى وبقية السلطانات وأولادهنَّ فى زورق خاص استلم صلاح الدين دفته بيده غير آذن لأحد باستلامه ، فلما ابتعد الزورق عن السراى تنهدت مهرى من أعماق قلبها فتبسم لها صلاح الدين ابتسامة خفيفة دلالة على الظفر فأدارت مهرى وجهها كى لا تراهُ وقضت السلطانات تلك المسافة بالبكاء والنحيب واستمطار اللعنات على الخائنين ، فلما وصلنَ إلى السراى التى خصصت للسلطان عبد العزيز عهد صلاح الدين بالدفة إلى أحد البحارة وانحدر قبل الجميع يساعد السلطانات على الانحدار إلى الرصيف ، ولكن السلطانات رفضنَ مساعدته وفضلنَ عليها خطر السقوط فى البحر وقابلنهُ بالشتائم وجاءت مهرى آخر الجميع متكئة على ذراع جاريتها فزلت قدم الجارية فسقطت وكادت تجرُّ السلطانة مهرى معها فذعرت هذه وصاحت مستغيثة وإذا بيدٍ قوية نشلتها فأنجتها من السقوط ووضعتها على الرصيف سالمة فالتفتت إلى صلاح الدين ، وقالت لهُ : جزاك اللّه جزاء ما فعلت معى . ودخلت السراى التى انتقوها منفى لذلك السلطان العظيم الشأن .

* * *

ولم يبزغ فجر ٣٠ أيار حتى بدأت المدافع تدوى فى أرجاء الآستانة مبشرة بإبدال السلطان بغير إهراق نقطة من الدم أو حدوث أقل مناوشة أو خصام ، الأمر الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ آل عثمان منذ نشأتهم إلى يومنا هذا .

وقد أوجبت تلك الثورة السلمية التى لم تطل أكثر من ليلة دهشة العالم قاطبةً وأعجب بها الأوروبيون خاصةً ، وقابل الشعب خلع السلطان عبد العزيز وتولى ابن أخيه

السلطان مراد الخامس بمزيد الفرح والسرور ، وتوسموا فى أميرهم الجديد طلائع الحرية والإصلاح ، وهبَّ السكان يريدون المظاهرة بفرحهم فبلغهم أن السلطان الجديد خارج من السر عسكرية إلى سراى طلمه بغجة فامتلأت بهم الشوارع والطرق على اختلاف أجناسهم وأديانهم يهنئون بعضهم بعضًا بذلك العهد الجديد .

وعند الساعة الثالثة من النهار ركب السلطان عربة فاخرة وحده ولبس فى يديه قفازًا أبيض ، وكانت تلك المرَّة الأولى التى لبس فيها سلطان القفاز فى مثل تلك الساعة ، فقابله الناس بالتهليل والدعاء وطفق هو يحييهم مبتسمًا وملامح الأنس واللطف بادية على محياه فاجتذب أفئدة الجميع ، وكان الياوران يحيطون به من كل جانب تحت رئاسة صلاح الدين بك الذى كاد لا يصدق أن يرى ما يرى فاجتاز الموكب جسر قره قوى ، ثم غلطه سراى حتى طلمه بغجة ، وقبل أن تجتاز العربة الباب تقدم ضابط يعرفه السلطان ورفع إليه كتابًا مختومًا فتناول السلطان الكتاب بتلهف لأنه عرف من حامله حسن بك أنه من عمه وتشوق الناس لمعرفة فحوى الكتاب ، وإذا بجرائد المساء صدرت ناشرة صورته فعرف الناس حينئذٍ اعتراف السلطان المخلوع بتولى ابن أخيه ورضوخه له وتسليمه أمره إليه وهذه صورة الكتاب .

شوكتلو عظمتلو أفندم

اسمح لأحقر رجل من رعيتك أن يكون فى مقدمة المهنئين لك سائلاً اللّـه المتعال أن يطيل ملكك ، ويجعل لك مستقبلاً سعيداً ورجائى الوحيد إليك أن تحرص على حياتى ، وأن تأذن لى بالإقامة مع عائلتى فى القسم الذى بنيته لجلالتك فى سراى جراغان .

وأسأل اللّـه أن يلهمك بحكمته السامية ما فيه خير الأمة والدولة ، وإذا كنت أتجاسر على تقديم رأيى فهو ألاَّ تضع ثقتك فى جيشك فقد ضحيت كل شىء من أجله وهو الذى خاننى ، وفى الختام أسأل اللّـه عزّ وجل أن يهبك عمرًا طويلاً وعيشًا هنيئًا .

هذا دعاءُ أخلص عبيدك وأشدهم لك احترامًا

عبد العزيز

وذكرت الجرائد بعد نشرها هذا الكتاب أن جلالة السلطان مراد أمر فى الحال بإجابة طلب عمه .

وقد دهش الجميع من رضوخ ذلك السلطان الجبار وطاعته وتفاءلوا خيراً وأمنوا على حياته ؛ لأنه كما قلنا كانت العادة الجارية لذلك العهد قتل السلاطين لا خلعهم ، كما أنهم كانوا يقتلون أولياءَ عهدهم لراحتهم .

ولما جاء المساءُ انجلت الآستانة كالعروس بزينتها البهية وبالغت فى ذلك حتى كانت كأنها شعلة نار ، وكان السلطان مراد فى القاعة الكبرى يقابل وفود المهنئين وقد أمر بدخول جميع الناس عليه ، وكانوا على اختلاف طبقاتهم يرون منه مزيد اللطف والإيناس .

(١٦)

موت السلطان عبد العزيز

قلنا : إنه كان للكتاب الذى أنفذه السلطان عبد العزيز إلى السلطان مراد رنة عظيمة فى محافل الآستانة ونواديها ، وقد علَّق عليه حزبه القديم أهمية كبرى ، وظنوا أنها حيلة لإخماد الضغائن وتسكين الخواطر وتدبير وسيلة للانتقام متى عاد فتغير الرأى العام ، فلما نُقل السلطان عبد العزيز إلى سراى جراغان وأبدلوا له خدمه وحشمه وخصيانه جميعًا بغيرهم ممن عُرفوا بإخلاصهم للسلطان الجديد أدرك أن لا أمل من العود إلى العرش واستولى عليه اليأس والقنوط ، فعرف حينئذٍ صعوبة السقوط وزوال النعمة ، ولما كان لا نفس كبيرة فى صدره تشجعه على احتمال الأرزاء ومصائب الدهر وتقلبات الأيام ، كبر عليه مصابه وتغلبت عليه طبيعته القطرية فتغيرت أطواره وتبدلت أخلاقه وصار يقضى ليله ونهاره بالسباب والشتائم واستمطار اللعنات على جميع الناس يبكى عرشه المنثلّ وينوح على عزه السابق ومجده القديم ، وكانت والدته مع بقية نسائه وحرمه يحاولن عبثًا تطييب خاطره وتهدئة باله وهو يزداد حنقًا

وغضبًا حتى خشى عليه من الانتحار لعدم احتمال معيشة الأسر فى إحدى زوايا قصره وفى نفس عاصمته ولا يخفى أن النفى يثقل جداً على الملوك فكيف السجن إذا كان على أبواب قصورهم وخصوصًا إذا كان السجين كالسلطان عبد العزيز معدوداً فى مقدمة ملوك المشرق فى حب الأثرة والملك ؛ ولذا ثقلت عليه هذه الحياة ففارق عينيه الرقاد واستولى عليه السهاد وبقى خمسة أيام لا يلذ له طعام ولا شراب وهو لم يذق غمضًا ولم تلامس جنبه أرضًا ..

وبزغ فجر الأحد الأول من شهر حزيران والسلطان عبد العزيز جالس على ديوان ينظر بعين جامدة بهاء ذلك النهار ووالدته إلى جانبه تنظر بعين حزينة إلى ما صار إليه ولدها بعد الإقبال والسؤدد ، والسلطانة مهرى تصكُّ أسنانها ملتحفة فى فراشها ليس من البرد ، بل من جراء نوبة عصبية كانت تثيرها عليها الهواجس والأحزان وسوء المآل .

ولما طلعت الشمس قام السلطان يتمشى فى غرفته ذهابًا وإيابًا كالأسد السجين فى قفصه الحديدى ، وكانت أقدامه لا تكاد تقوى على حمل جسمه ، ثم التفت إلى والدته فقال : أتتذكرين يا أُمَّاه أنى لما أمرت ببناءِ هذا القسم قال المهندس : إن هذا المكان كان قبراً لأحد الدراويش من ذوى الكرامات ، وإن ذلك يعود علينا بشرٍ ، أتتذكرين ذلك ؟ فأجابته : نعم أتذكر ، وأذكر كيف أن مهرى أيضًا سخرت من نبوعتهِ وألحَّت بوجوب إتمامه ... فانتبهت مهرى لهذا الكلام قائلة : هذا قضاءٌ وقَدَر . فلم يجب السلطان إلاَّ بالتأوُّه والحسرات . فقالت لهُ والدتهُ حينئذٍ دع عنك يا ولداه هذه الأفكار السوداء واحترس على صحتك وحياتك فقد أصبحتَ خيالاً ، فأجابها : خفّفى عنكِ فإن الفرَح قريب إن شاءَ اللّه وهو سيرزقنى قوة كافية للنجاة ، فلم تفهم والدته ما يعنى بقوله هذا ، فأجابت : نعم ، إنه الرحمن الرحيم وهو ولا شك سينتقم لك من الخوَنة ويعيدك إلى عرشك فهزَّ السلطان رأسه استخفافًا وقال : هل سمعتِ أو رأيت ملكًا عاد إلى عرشه بعد ائتمار شعبه عليه ؟ فقالت له مهرى : كلا ليس شعبك هو الذى خانك ، بل تلك إحدى الدسائس الجارية فى الآستانة وقد أخبرنى حسن بك أن

الدسائس هذه لا تزال على قدم وساق ، وأن الذى يظن نفسه ثابتًا فى عرشه ... لا يلبث عليه طويلاً ، فصاح بها السلطان اصمتى يا مهرى ودعى هذا الكلام ... فلا أريد بعد الآن سماع ألفاظ المؤامرات والأصحاب والأعداء ، ولا أريد معرفة شىءٍ ولا رغبة لى إلاَّ فى الراحة والسكينة ... فقد سئمتُ الحياة .... آه يا رباه قد قُضى علىَّ ألا أذوق طعم الراحة والعزلة فلا يمكننى البقاء دقيقة إلا محتاطًا بالجواسيس والخدم الخونة والنساء الكثيرات الهوَس . فقالت له والدته ومهرى وقد خافتا أن يتكدَّر منهما أتريد أن نبتعد عنك قليلاً التماسًا لراحتك ؟

– نعم دعونى أرتاح قليلاً على هذا الديوان .

فنهضتا للحال وتأهبتا للخروج ، وقالت له مهرى : إذا احتجت أمرًا مُرْ باستدعائى فى الحال ، وأرجوك أن تطرد عنك كل هذه الأفكار السوداء . فقال لها باسمًا : كونى براحة بال فإسماعيل بك فى الغرفة المجاورة لمراقبتى ... وأرسلى لى مرآةً ومقصًا فإنى أريد تسوية لحيتى ، فخرجت مهرى ووالدته وقلبهما فى اضطراب شديد لشدة ما أحسا من القلق عليهِ ودخلتا غرفة مجاورة لتكونا على مقربة منهُ ، وأرسلت لهُ مهرى مع جاريةٍ المرآة والمقص .

وكانت مهرى ترسل بعض الجوارى من حين إلى آخر لافتقاده ، وكانت تطمئن لمَّا كنَّ يخبرنها بأنهُ جالس على الديوان أمام المرآة مهتم بتسوية لحيته ، وأن إسماعيل بك فى طرف الغرفة يتصفح الجرائد ، فقالت مهرى : إذًا ليس هو وحدهُ فالحمد للّه وقالت والدته : وأنا قد أخفيت عنهُ جميع الأسلحة خوفًا عليه من الانتحار ، فقالت مهرى : ولكن لماذا أمر بإبعادنا عنهُ ...؟ فإنى قلقة عليهِ فأجابتها والدتهُ : ما الحيلة اللّه كريم ... ولم تتم هذه الكلمات حتى سمعت ضجة وخصامًا بين اثنين فذعرتا وصاحتا يا اللّه ماذا جرى ؟ هرولتا إلى غرفة السلطان ، فوجدتا منظرًا هائلاً ترتجف منهُ الأبدان فصعقتا لهوله . كان السلطان عبد العزيز ملقًى على الديوان مخضبًا بدمه المتدفق من أرساغه ومعاصمه مكفهر الوجه وقد انحنى رأسهُ على كتفهِ وإسماعيل بك

يحاول عبثًا الضغط على الجراح لمنع الدم من الانفجار فصرخت السلطانتان وأعولتا فتراكض إليهما جميع من فى السراى من رجال ونساء وانطرحت والدته والسلطانة مهرى تبكيانه وتكلمانه وكسرت بقية النساء نوافذ الغرف وملأنَ الفضاء صراخًا وعويلاً يستغثنَ ولا من مجيب ويستصرخنَ ولا من معين ، وكان هدير البوسفور الجواب الوحيد ، وإذا بالطبيب العسكرى جاءَ يصحبهُ بعض الخصيان ، فتقدم من السلطان مرتجفًا وقد طوقتهُ الأنظار وتعلقت الآمال على شفتيه فانحنى وأخذ يتفحص الجراح ثم نهض وطلب الآلة التى كانت سبب الموت فأعطته مهرى المقص وصاحت لقد مات من يدى وأُغمى عليها ، فلم يتمكن الطبيب إلاَّ من تحقيق الموت فأحاط الحاضرون بإسماعيل بك يتهددونهُ بتمزيق جسمه وقد اتهموهُ بقتل السلطان ، وأخذ هو يحاول تبرئة نفسه ويقص عليهم ما جرى ، وأنهُ لم ينتبه إلى عمل السلطان ومحاولته فتح شرايينه إلاَّ بعد أن قُضى الأمر فهرع إليهِ حينئذٍ يحاول نزع المقص منهُ ، ولكن السلطان كان قد سقط ميتًا فلم يصدقوهُ وهجموا عليهِ يضربونه ، ولكنهُ تمكن أخيراً من النجاة من بين مخالبهم فأركن إلى الفرار .

وستبقى هذه المسألة العويصة لغزًا غامضًا فى التاريخ ؛ إذ لم يتمكن أحد حتى الآن الجزم فيما إذا كان السلطان عبد العزيز مات مقتولاً أو منتحراً .

ولمَّا بلغ السلطان مراد خبر وفاة عمه وتفصيل موته استولى عليه عارض عصبى فأخذ يبكى وينوح وقد خاف أن يتهمهُ الناس بأن لهُ فى مقتل عمه يداً ، وكانت تلك الساعة بداية اختلال شعورهِ ، ثم جاءُوا باثنى عشر طبيباً من إفرنج وأتراك ومعهم أطباء السفراء للكشف عن سبب القتل ، فأصدروا تقريراً نشرته جرائد ذلك العهد من مقتضاهُ أن الجِرَاح يمكن أن تكون مسببة عن الانتحار . وجرى دفن السلطان عبد العزيز فى الغد بلا احتفال خوفًا من مظاهرة الشعب ، إذ كان لخبر وفاته تأثير عظيم عند جميع الناس حتى عند أعدائه وخصومه .

ونشرت الجرائد بعد مضي خمسة عشر يومًا من وفاة السلطان الخبر الآتى :

« انتقلت إلى رحمة ربها تعالى السلطانة مهرى وهى على أهبة الولادة ، وذلك من شدة تأثرها على فقد زوجها العظيم الشأن وقد اشتد عليها الحزن إلى درجة أن وقعت فى مرض عضال عجزت عنهُ حيل الأطباء فذهب بحياة تلك السلطانة البارعة الجمال ، وسيحتفل غدًا بدفنها فى يكى جامع تغمدها اللّه برحمته ورضوانه » .

وفى ٢٠ يولية «تموز» اجتمع السادة الأعلام والأئمة والمشايخ للاحتفال بمشهد السلطانة مهرى ، فساروا أمامه يرتلون ، وسار الناس وراء النعش ، وكان مغطًّى بشال كشميرى ثمين يتبعه بعض الباشاوات والوزراء ، وكان الخصيان والإغاوات يتناوبون حمله اتباعًا للعادة الشرقية فى مآتمهم إلا ضابطًا كان يحمل ويرفض إخلاءَ مركزه ، وكان ذلك الضابط مرتديًا بدلته العسكرية فعرفه الناس أنه حسن بك شقيق المتوفاة وكانت عيناه تتقدان نارًا تطفئهما من آن إلى آخر دمعة أحرّ من الجَمْر . وكان يجيب كل من يطلب إليه الراحة : لم يبقَ لى إلاَّ هذه اللحظة اليسيرة لحمل هذه الشقيقة العزيزة فلا تحرمونى منها .

ولما وصل الناس إلى تربة السلطان أيوب واروا الجثة فى حفرة وبعد أن أقاموا عليها الصلاة وكرّروا عبارات التعزية لشقيقها الحزين عاد كل إلى عمله وبقى شقيقها وحده على القبر متكئًا على جذع شجرة غائصًا فى بحار التأملات والأفكار ، فلم يفق إلاَّ وقد وجد نفسه وحيدًا على ذلك الضريح وقد خيمت عليه رهبة الموت وهيبة الأبدية فتنهد من قلب مقروح ، ثم صاح : أى مهرى العزيزة لأقسمنَّ بضريحك إنى لأجعلنَّ عظامك تهتزُّ طربًا عندما تشعر بمرور جثث أعدائك ، فإذا سمعت تلاوة الصلوات والآيات تذكرى شقيقك ، لأنهُ لا يطيل عليك بعادهُ ، فهو لاحق بك عن قريب ، وهذا البدر لا يصير هلالاً حتى تحفر حفرتى إلى جانبك ..

قال هذا ونهض وانتفض منتعش الفؤاد لذلك اليمين وخرج من التربة صابرًا ، فدهش جميع من رآهُ ، وأعجبوا من صبره واحتمالهِ مصابه ...

(١٧)

مجلس الوزراء

كانت وفاة السلطان عبد العزيز الضربة الأولى على عقل السلطان مراد كما قلنا وقد بلغ منهُ التأثر حداً أعدمه لذة الرقاد وتناوبتهُ الحمى ، فأشار الأطباء بوجوب انقطاعه عن النظر فى شئون الدولة واللهو بالتنزه والتسلية .

وهكذا تعذّر على الوزراء الاجتماع فى السراى ، فصاروا يعقدون جلساتهم تارة فى الباب العالى وطوراً فى السر عسكرية وأحياناً فى دار مدحت باشا .

ثم شعر حسين عونى باشا بهياجٍ بين الحزب العسكرى القديم وبميلٍ إلى نجل السلطان عبد العزيز فعزم على نفى رؤسائه وفى مقدمتهم حسن بك زعيمهم فَرقَّاهُ أولاً إلى رتبة قومندان الفيلق السادس المقيم فى بغداد ، ثم أصدر أمرهُ إليه باتباع فيلقه ، فأبى حسن بك الرضوخ ، فأمر السر عسكر بسجنه ، فبعد أن عقل أربعة أيام مسجوناً تظاهر بالرضوخ والامتثال فأخلوا سبيلهُ بعد أن شرطوا عليه السفر فى الغد وهكذا خرج من سجنه فسار أولاً إلى منزلهِ فارتدى بدلته العسكرية وأخفى تحتها مسدّسين وخنجراً واكترى زورقاً وسار إلى تربة السلطان أيوب فدخلها وسار إلى قبر شقيقته فجثا وصلّى ثم عاد إلى زورقه قاصداً اسكى دار ، ولا يخفى أن أعيان الآستانة وعظماءَها قد اختاروا ذلك القسم الآسيوى من الآستانة مقاماً لهم وكان لحسين عونى باشا فيها دار جميلة فيممها حسن بك حتى وصلها فأخبرهُ الخدم أن الوزير قد سار إلى إستانبول لحضور مجلس الوزراء الذى سيعقد فى ذلك المساء عند مدحت باشا ، فعاد حسن على أعقابه حتى وصل بزورقه إلى اسكلة « سركجى » فانحدر إلى البرّ وأخذ يسير فى الطرق العوجاء الضيقة ، وكانت الشمس قد غربت وأسدلت الظلماءُ نقابها الحالك ، فقال حسن : ها قد بدأ الاجتماع وآذنت الساعة فخفَّ عاجلاً حتى صار أمام الدار فوجد الخدم قد فرغوا من طعام المساء وأخذوا يشربون القهوة ويدخنون بكل سرور وهناء ، فلما عرفوا حسن بك خفّوا للقائهِ والتسليم عليه

وصعد السلم فلم يعارضهُ أحد ، وكان أحد الأغاوات جالسًا فى أعلاه ينتظر أوامر الوزراء ، فلما رأى حسنًا عرفه فتقدم إليهِ وسألهُ مدهوشًا :

– أى حسن بك أى حظّ ساقك إلى هنا ؟

– إنى مسافر غدًا ولذا رغبت فى مقابلة وزير الحربية لمفاوضته فى أمر هام .

– إن دولته فى المجلس الآن . وأشار إلى القاعة حيث كان الوزراء مجتمعين وقد أُسدِلَ على الباب ستار من حرير .

– ولكن لا بدَّ من مفاوضته الساعة .

– أتريد إذًا أن أعلم ياوره بذلك ؟

– من هو الآن ؟

– توفيق بك .

– وأين صلاح الدين ؟

– ذهب هذه الساعة إلى الباب العالى ، وأرجوك أن تبتعد قليلاً حتى أستدعى لك توفيق بك .

فتظاهر حسن بالامتثال وابتعد إلى النافذة ، فانحدر الأغا يبحث عن ياور الوزير ، ولم يكد يغيب عن الأنظار حتى تقدم حسن الهوينا مشيًا على رءُوس قدميه ، ورفع ستار الباب بخفة فوجد الوزراء مجتمعين حول منضدة وأوراق كثيرة مكدسة أمامهم وهم يتباحثون بصوت عالٍ ، فأدار لحظة قليلاً متفحصًا مراكزهم وتناول المسدسين من جيبه وسقط عليهم كجلمود صخر حطه السيل من علٍ ، فتقدم أولاً إلى حسين عونى باشا مصوبًا مسدسه إليه وانتهره قائلاً : حسين عونى إياك أن تتحرَّك خذها وأطلق عليه رصاصة أصابته فى صدره فتمكن رغمًا من ذلك من النهوض ولكن حسنًا عاجلة بضربة خنجر جندله بها قتيلاً فذعر الوزراء ، وقاموا يطلبون النجاة إلا رشيد باشا ، وكان

ضعيف القلب والبنية ، فأغمى عليه وبقى فى كرسيه وتمكن مدحت باشا مع بعض الوزراء من الفرار من باب سرّى يؤدى إلى الحريم . وحاول أحمد باشا مدة القبض على حسن ، ولكن أصابتهُ رصاصة فى كتفه فتركهُ وفرّ هاربًا . وأدار حسن لحظةُ فى القاعة فلم يجد إلاَّ حسين عونى قتيلاً ورشيد باشا مغمى عليه فى كرسيه ، وكان لا يريد قتله ، ولكن الغضب قد أعماهُ وبغير أن يدرك ما هو فاعل تقدم إليهِ وصوب بمسدسه إلى أم رأسه وأطلقه فمات لساعته منتقلاً من غيبوبة الإغماء إلى الموت بدون ألم ، ثم تراكض توفيق بك والخدم لما سمعوا إطلاق الرصاص وصراخ الوزراء فوجدوا حسن بك وحده فى الغرفة مع جثتى الوزيرين يحاول خلع باب الحريم الذى مرّ منهُ بقية الوزراء ، فاستل توفيق بك حسامه وهجم على الشركسى وضربه ضربة انفجر بها دمهُ ولكن حسنًا التفت إليهِ ، وقال : تعلَّم يا توفيق الضرب وعاجله بضربة واحدة خرَّ بها قتيلاً لساعتهِ وذعر الخدم ، فلم يتجاسر أحد أن يتقدم إليه وعاد هو يحاول خلع الباب والنساء يولولن من الداخل والخدم من الخارج فتجمع الجند وهجموا عليه وهو يدافع عن نفسه دفاع الأسود فقتل منهم اثنين وأصيب هو بجراح كثيرة فسال دمه وانحطت قواه ورأى أحد الأغاوات ذلك ، فقال : ضربة واحدة كافية للإجهاز عليه ، وإذا بصوت هائل يصيح من الخارج : لا ... لا تقتلوهُ إنما القتل فخرٌ للأبطال ، فهو لا يستحق موت الحسام ، بل الشنق بالحبال . فالتفت حسن إلى ذلك الصوت فرأى صلاح الدين هاجمًا عليهِ يريد اعتقاله وشد وثاقه فصاح بهِ حسن : ويك يا صلاح الدين ... إلى الوراءِ ... إياك أن تتقدم وصوب مسدسه إليهِ فصاح بهِ صلاح الدين : خسئت من نذل مهان . وإذا برصاصة أصابت صلاح الدين فى صدره فوقع يختبط بدمه . وكان قد احتال بعض الضباط فى تلك البرهة على حسن ، فشدوا وثاقه وأخذوا يضربونه فخرج مدحت باشا ومنعهم من قتله ، وقال : دعوه حيا لمحاكمته .

وطار الخبر للحال فى الآستانة فقامت لهذا النبأ وقعدت وكانت تلك الحادثة الضربة القاضية على عقل السلطان مراد ، فاختل شعوره تمامًا وتخلى مضطرًا عن العرش إلى أخيه عبد الحميد أفندى (السلطان الحالى) .

(١٨)

الجـــزاء

وتجمع فى غد ذلك النهار المشئوم خَلْق كثير من رجال ونساء فى ساحة السر عسكرية حتى ضاقت بهم على رحبها ، وذلك قبل أن تطلع الشمس وخرجت الباعة والأولاد كأنه عيد رمضان ، ثم رفع العلم ودقت الطبول واصطفت الجنود وفتح باب السجن وظهر من ورائه عدد من الضباط يحيطون برجل بقميص أبيض فقال الناس : ها هو ... وأخذوا يتساءلون لِمَ هو على هذه الحالة فكان يجيبهم بعض العارفين البعض قد حوكم مساء أمس فحكم عليه بالإعدام بعد تجريده من رتبته ، ثم نقلوه إلى عربة وخرجت من الساحة الداخلية إلى الفسحة الخارجية ووقفت أمام الأشجار التى تظللها فانحدر منها حسن الشركسى ضعيفًا هزيلاً متكئًا على ذراعى اثنين من الشرطة وساد الصمت على الناس كأن على رءوسهم الطير ، ثم قرعت الطبول ثانية وتقدم إمامٌ فرقته وتلا على مسامعه حكم الإعدام فلم يصغ حسن إليه ، وكان قد علَّق حبل فى أحد أغصان شجرة قديمة ، فلما فرغ الإمام من تلاوة الحُكم قرأ بعض آيات قرآنية وقدم إليه المصحف فقبَّله والناس مدهوشون كيف تمكن رجل بذلك الهزال من الإقدام على تلك الأعمال الغريبة . وأخيراً تقدم وهو ساكن الجأش فوضعوا عقدة الحبل فى عنقه ورفعوا الكرسى من تحت قدميه فتدلَّى جسده وبدأت رقبته تمتد والناس متأثرون من كيفية نزاع ذلك البطل . فلما خمدت أنفاسه تقدم واحد وعلق على صدره صورة الحُكم وقد كتبوا عليها ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ وتركوه طول ذلك النهار معلقًا .

* * *

ومرَّت فى تلك الساعة عربة قادمة من اسكى قبور وفيها شيخ هرم معهُ تابوت من خشب السرو . وكان ذلك الشيخ أحمد خادم عائشة الذى لبث سبع سنوات فى سجنه

جزاء أمانته لمولاته ... وكانت جثة صلاح الدين فى ذلك التابوت ينقلها ذلك الشيخ إلى سالونيك ليدفنها قرب عائشة حبيبته عملاً بوصيته . وكأننا بهما وقد تعذر عليهما الاقتران فى الحياة كانا يودان ألاّ يحرمانه بعد الممات ، ثم أطلّ ذلك الشيخ رأسه من نافذة العربة وتأمل فى جثة حسن معلقة والناس من حولها وقوف يتأملون فتنهد وقال : اللهمّ قد سبق عدلك جزاك ... فأنت العادل وأنت الرحمن الرحيم .

انتهت

« وكان الفراغ من تسويد هذه الرواية فى باريس مساء ٣٠ أيار سنة ١٨٩٧م » .

أمين أرسلان

* * *

مؤلفات صاحب الكتاب :

- تاريخ نابليون الأول ، طبع فى بيروت فى المطبعة الأدبية سنة ١٨٩٠م [١] .
- حقوق الملل ومعاهدات الدول ، فى الحرب ، طبع فى مصر سنة ١٩٠٠م .
- أسرار القصور ، طبعت مرتين : مرة فى مصر ، ومرة فى البرازيل .

التآليف التى ستصدر عند سنوح الفرصة :

- الساسة والسياسة .
- ملكة تدمر (أو سيرة اللادى استير ستنهوب) .
- أحمد باشا الجزار وحصار بونابرت لمدينة عكا .
- تتمة حقوق الملل ومعاهدات الدول .

---

(١) ذهب هذا التاريخ فريسة للنار لما حرقت المطبعة الأدبية عام ١٨٩١م .

المؤلف فى سطور

- **أمين أرسلان** (... تُوفِّى عام ١٩٤٣م) .
- من رجال السلك السياسى والصحافة .
- ولد فى الشويفات بلبنان ثم رحل إلى باريس فأصدر فيها جريدة سماها "كشف النقاب" بالعربية وولى القنصلية العامة للدولة العثمانية فى بروكسيل والأرجنتين .

من إصداراته :

- أسرار القصور ..
- مذكراتى .
- تاريخ نابليون الأول .
- الساسة والسياسة .

* * *

المقدم فى سطور

أ.د. محمد بدوى

- أستاذ اللغة العربية وآدابها فى جامعة القاهرة .
- نشر شعراً ونقداً للشعر والرواية .
- له كتاب عن صلاح عبد الصبور ، والرواية الحديثة فى مصر .

آخر ما نشر له :

- كتاب «بلاغة الكذب» .
- كتاب «لعب الكتابة ... لعب السياسة» .
- «مختارات من الشعر المصرى فى الربع الأخير من القرن العشرين» .

له قيد الطبع كتاب عن «أدب نجيب محفوظ» .

* * *

المراجعة اللغوية : عبـد الرحمن حجازى

الإشـراف الفنـى : هشـام نـوار



صورة الغلاف: جناح الحريم بقصر طوبقابى - إسطنبول